فى الأدب والنقد
«٥»

تهذيب الحيوان للجاحظ

الجزء الثانى

عبد السلام محمد هارون

مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقى

فى الأدب والنقد

« ٥ »

تهذيب الحيوان للجاحظ

الجزء الثانى

تأليف

عبد السلام محمد هارون

الأستاذ بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقى

٨٤

الرقية والعزيمة

والرُّقية تكون على ضروب : فمنها الذى يدّعيه الحوّاء والرقّاء ، وذلك يشبه بالذي يدّعى ناسٌ من العزائم على الشيطان والجنّ ؛ وذلك أنّهم يزعمون أنّ فى تلك الرُّقية عزيمةً لا يمتنع منها الشيطان فكيف العامر[١] ؟! وأنّ العامر إذا سُئل بها أجاب ، فيكونُ هو الذى يتولّى إخراج الحياتِ من الصخر .

فإن كان الأمر على ما قالوا فما ينبغى أن يكون بين خروج الأفاعى الصُّمِّ وغيرها فَرق ، إذا كانت العزائم والرُّقَى ليس شيئاً يعمل فى نَفْس الحية ، وإنما هو شىء يعمل فى الذى يُخرج الحية . وإذا كان ذلك كذلك فالسَّميع والأصمُّ فيه سَواء .

وكذلك يقولون فى التَّحبيب والتَّبغيض ، وفى النُّشْرة[٢] وحلّ العقدة ، وفى التعقيد والتَّحليل .

ويزعمون أن الجنّ لا تجيبَ صاحبَ العزيمة حتى يتوحَّش ويأتىَ الخرابات والبرارىَّ ، ولا يأنسَ بالناس ، ويتشبَّه بالجنّ ، ويغتسل بالماء القَرَاح[٣] ،

---

(١) العامر : ما يسكن بيوت الناس ويعمرها من الجن ، فيما يزعمون .

(٢) النشرة : رقية يعالج بها المجنون والمريض .

(٣) القراح ، كسحاب : الخالص لا يشوبه شىء .

ويتبخّر باللّبان الذكر ، ويراعي المشتري[١] . فإذا دقّ ولطف ، وتوحّشَ وعزَم ، أجابته الجنُّ . وذلك بعد أن يكون بدنُه يصلُح هيكلاً لها ، وحتّى يَلَذّ دخولَه واديَ منازلها ، وألاّ يكرَه ملابستَه والسكونَ فيه . فإنْ هو ألحّ عليها بالعزائم ، ولم يأخذ لذلك أهبتَه ، خَبَلتْه ، وربّما قتلتْه ؛ لأنها تظنُّ أنّه متى توحّش لها واحتمى وتنظف ، فقد فرغ . وهي لا تجيب بذلك فقطْ[٢] حتّى يكونَ المعزِّم مشاكلاً لها في الطّباع .

فيزعمون أنّ الحياتِ إنّما تُخرَج إخراجاً ، وأن الذي يخرجها هو الذي يُخرج سمومها من أجسادِ الناس إذا عزَم عليها .

والرُّقية الأخرى بما يُعرَف من التعويذ . قال أبو عبيدة : سمعت أعرابيًّا يقول : قد جاء أحدكم يسترقيكم فارقُوه . قال : فعوّذوه ببعض العوائذ .

والوجه الآخر مشتق من هذا ومحمول عليه ، كالرجل يقول : ما زال فلانٌ يرقي فلاناً حتى لانَ وأجابَ .

---

(١) المشتري : كوكب تنسب إليه الخيرات الكثيرة والسعادة العظيمة .

(٢) أي لا تجيب بالعزيمة فقط ، بل لابد لها مع ذلك من أن يشاركها المعزم في أطباعها .

٨٥

تأثير الأصوات

وأمر الصّوت عجيب ، وتصرُّفه فى الوجوه عَجَب .

فمن ذلك أنّ منه ما يقتل كصوت الصاعقة ، ومنه ما يسرُّ النفوس حتى يُفرِطَ عليها السرور فتقلق حتى ترقص ، وحتّى ربّما رمى الرجلُ بنفسه من حالِق [1] ، وذلك مثل هذه الأغانى المطربة . ومن ذلك ما يُـكمِد [2] ، ومن ذلك ما يُزيل العقلَ حتى يُغشَى على صاحبه ، كنحو هذه الأصوات الشجيّة والقراءات الملحّنة . وليس يعتريهم ذلك من قبل المعانى ؛ لأنهم فى كثير من ذلك لا يفهمون معانى كلامهم .

وقد بكى ما سَرْجَوَيْهِ [3] من قراءة أبى الخَوخ ، فقيل له : كيف بكيتَ من كتاب الله ولا تصدِّق به ؟ قال : إنّما أبكانى الشّجَا [4] !

---

(١) من حالق : من مكان شاهق مرتفع .

(٢) يكمد : يحزن . والـكمد : الحزن الشديد .

(٣) ماسرجويه : طبيب يهودى ، وكان أحد المترجين من السريانية إلى العربية .

(٤) الشجا : الطرب .

٨٦
أثر الأصوات فى الحيوان

والدوابُّ تصُرُّ آذانها(١) إذا غنّى المُكارِى . والإبل تصرُّ آذانَها إذا حدا فى آثارها الحادى ، وتزداد نشاطا ، وتزيد فى مشيها . ويجمع بها الصيّادونَ السمكَ فى حظائرهم التى يتّخذونها له . وذلك أنهم يضربون بعصىٍّ معهم ويَعْطِعطون(٢) ، فتقبل أجناس السمك شاخصةً الأبصار ، مُصغيةً إلى تلك الأصوات ، حتّى تدخل فى الحظيرة . ويُضرَب بالطّسَاس(٣) للطّير وتُصاد بها ، ويُضْرَب بالطّساس للأُسد وقد أقبلَتْ ، فترُوعها تلك الأصوات .

وقال صاحب المنطق : الأيائل تُصاد بالصّفير والغناء . وهى لاتنام ما دامت تسمع ذلك من حاذقِ الصوت ، فيَشْغَلونها بذلك ويأتُون مِن خَلْفها فإذا رأوها مسترخيةَ الآذانِ وثبوا عليها ، وإن كانت قائمة الأُذنين فليس إليها سبيل .

والصّفير تُسقَى به الدوابُّ الماء ، وتنفّر به الطّير عن البذور .

وزعمَ صاحبُ المنطق أنّ الرعدَ الشديدَ إذا وافق سباحةَ السمك فى أعلى

---

(١) تصر آذانها : تنصبها للسماع .

(٢) العطعطة : تتابع الأصوات واختلاطها .

(٣) الطساس : جمع طس ، وهو الطست .

الماء رمَت ببيضها قبل انتهاء الأجل . وربما تمّ الأجل فتسمع الرعدَ الشديد ، فيتمضَّل(١) عليها أيّاما بعدَ الوقت .

* * *

وقال جعفر بن سعيد : سأل كسرى عن الكَمأة فقيل له : لا تكون بالمطر دون الرعد ، ولا بالرعد دون المطر . قال : فقال كسرى : رشّوا بالماء واضربوا بالطُّبول !

وكان من جعفر على التمليح(٢) . وقد علم جعفرٌ أن كسرى لا يجهل هذا المقدار .

فالحية واحدةٌ من جميع أجناس الحيوان الذى للصّوت فى طبعه عمل . فإذا دنا الحوّاء وصفّق بيديه ، وتكلّمَ رافعاً صوتَه حتى يزيّد ، خرجَ إليه كلُّ شيء كان فى الجُحر ، فلا يشكُّ من لاعلمَ له أنّ الحيَّة خرجَتْ من جهة الطاعةِ وخوفِ المعصية ، وأنّ العامر أخرجَها تعظيماً للعزيمة ، ولأنّ المعزِم مُطاعٌ فى العُمّار .

والعامّة أسرع شيء إلى التصديق .

---

(١) أى يعسر خروجه .
(٢) التمليح : أن يأتى بشىء مليح .

٨٧

تعليق الحلى والخلاخيل على اللديغ

وكانوا يرون أنّ تعليقَ الحَلى ، وخَشْخَشةَ الخلاخيل على السليم[١] مما لا يُفيق ولا يَبْرأ إلا به .

وقال زيد الخَيْل :

أَيْمٌ يكون النَّعْل منه ضجيعَه كما عُلِّقَتْ فوق السليم الخلاخل[٢]

وقال الذُّبيانىّ :

فبتُّ كأنى ساوَرَتْنِى ضئيلةٌ من الرُّقْش فى أنيابها السُّم ناقعُ[٣]

يُسهَّد من لَيل التِّمام[٤] سليمُها لِحَلْىِ النِّساء فى يديه قعاقعُ

---

(١) السليم : اللديغ ، سمى بذلك تفاؤلا .

(٢) الأيم : الحية .

(٣) ساورته : واثبته . الرقش : جمع أرقش ورقشاء من الحيات ، وهو المنقط بسواد وبياض .

(٤) ليل التمام : أطول ليلة فى السنة ، أو كل ليلة مؤرقة .

٨٨

قصة امرأة لدغتها حية

جُوَيبر بن إسماعيل عن عمه قال :

حججتُ فإنّا لفى وقعةٍ[1] مع قوم نزلوا منزلَنا ، ومعَنا امرأة ، فنامت فانتبهَتْ وحيةٌ منطوية عليها ، قد جمَعَتْ رأسها مع ذَنبها بين ثديَيْها ، فهالها ذلك وأزعَجَنا ، فلم تزل منطويةً عليها لا تضرُّها بشيء ، حتّى دخلنا أنصابَ الحَرَم[2] فانسابت فدخلت مكّة ، فقضينا نُسكَنا وانصرفنا ، حتى إذا كُنّا بالمكان الذى انطوت عليها فيه الحية — وهو المنزل الذى نزلناه — نزلَتْ فنامت ، واستيقظَتْ فإذا الحيةُ منطوية عليها ، ثم صفَرت الحيةُ فإذا الوادى يَسيل حيّاتٍ عليها ، فنهشتها حتّى نَقَتْ عظامَها[3] ، فقلت لجارية كانت لها : ويحكِ أخبرينا عن هذه المرأة . قالت : بغَتْ ثلاثَ مرّاتٍ ، كلَّ مرّةٍ تأتى بولد ، فإذا وضعته سجَرت التنُّورَ ، ثمّ ألقَتْه فيه !

---

(١) الوقعة : النومة فى آخر الليل .

(٢) أنصاب الحرم : حدوده .

(٣) نقى العظم نقيا : استخرج نقيه . والنقى ، بالكسر : مخ العظام .

٨٩

جملة القول فى الظليم

فما فيه من الأعاجيب أنه يغتذى الصَّخرَ ويبتلعُ الحجارة ، ويَعمِدُ إلى المَرْو ، والمروُ من الحجارة التى تُوصَف بالملابسَة ، ويبتلع الحصى ، والحصى أصلَبمن الصخر ، ثم يُميعه[(١)] ويُذيبه فى قانِصَته حتّى يجعلَه كالماء الجارى ، ويَقصِد إليه وهو واثقٌ باستمرائه وهَضْمِه ، وأنه له غِذاء وقِوَام .

وفى ذلك أعجوبتان : إحداها التغذى بما لايُتَغَذَّى به ، والأخرى استمراؤه وهَضْمُهُ للشىء الذى لو أُلقىَ فى شىء ثم طبخ أبداً ما انحلَّ ولا لانَ .

والحجارةُ هو المثل المضروب فى الشدة . قال الشاعر :

* حتّى يلينَ لِضِرْسِ الماضغ الحجرُ *

وقال آخر :

ماأطيب العيشَ لوأنَّ الفتى حجرٌ تنبو الحوادثُ عنه وهو ملموم[(٢)]

ووصف الله قلوبَ قومٍ بالشدة والقسوة فقال : (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ

---

(١) الإماعة : الإسالة والإذابة .

(٢) الملموم : المجتمع الشديد .

قسْوَةً). وقال فى التشديد : (نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) ، لأنه حين حذّر الناسُ أعلمهم أنه يُلقِى العُصاةَ فى نارٍ تأكل الحجارة .

ومن الحجارة مايتّخذه الصَّفّارون عَلاَةً [1] ، دون الحديد ، لأنّه أصبرُ على دقِّ عظام المطارق والفِطّيسات [2] .

فجوفُ النَّعامة يذيب هذا الجوهر الذى هذه صفته .

---

(١) الصفار : من يعمل الصفر ، وهو النحاس الأصفر . والعلاة : السندان الذى يطرق عليه الحديد .

(٢) الفطيس : المطرقة العظيمة .

٩٠

القول فى النيران وأقسامها

ونحن ذاكرون جُمَلاً من القول فى النيران وأجناسها ومواضعها ، وأىّ شىء منها يضاف إلى العَجَم ، وأى شىء منها يضاف إلى العرب . ونُخبِرُ عن نيران الديانات وغير الديانات ؛ وعمَّن عظمها وعمَّن استهان بها ، وعمَّن أفرَط فى تعظيمها حتَّى عبَدها ، ونخبِرُ عن المواضع التى عُظِّم فيها من شأن النار .

فمن مواضعها التى عُظِّمتْ بها أن الله عزّ وجلّ جعلَها لبنى إسرائيل فى موضع امتحان إخلاصهم ، وتعرُّف صِدق نيَّاتهم ، فكانوا يتقرَّبون بالقُرْبان ؛ فمَن كان منهم مخلصاً نزلت نارٌ من قِبَل السماء حتى تُحيطَ به فتأكله ، فاذا فعلَتْ ذلك كان صاحبُ القربان مخلصاً فى تقرُّبه . ومتى لم يرَوها وبقِيَ القُربان على حاله قضَوا بأن كان مَدْخُولَ القلب[1] فاسدَ النية . ولذلك قال الله تعالى فى كتابه : (ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

---

(١) المدخول : الذى به دخل ، أى فساد فى عقله .

والدليل على أنَّ ذلك قد كان معلوماً قولُ الله عزّ وجلّ : (قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ) .

ثم إن الله ستَرَ على عباده ، وجعل بيان ذلك فى الآخرة ، وكان ذلك التدبير مصلحةَ ذلك الزَّمان ، ووَفقَ طبائعهم وعللهم . وقد كان القوم من المعاندة والغباوة على مقدارٍ لم يكن لينجَع فيهم ويكمُلَ لمصلحتهم إلاَّ ما كان فى هذا الوزن .

فهذا بابٌ من عِظَم شأن النار فى صدور الناس .

ومما زاد فى تعظيم شـأن النار فى صدور الناس قولُ الله عزّ وجل : (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُـدًى . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى . إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى[1]) .

وقال عزّ وجل : (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّى آنَسْتُ[2] نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

---

(١) طوى : موضع بالشام عند الطور .

(٢) آنست : أبصرت .

وكان ذلك مما زاد في قَدْرِ النار في صدور الناس .

ومن ذلك نار إبراهيم صلى الله عليه وسلم . وقال الله عزّ وجلّ : (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) . ثم قال : (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) .

فلما قال الله عزّ وجلّ : (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) كان ذلك مما زاد في نباهة النار وقَدْرِها في صُدور الناس .

٩١

نار الاستمطار

ونارٌ أخرى ، وهى النار التى كانوا يستمطرون بها فى الجاهلية الأولى ؛ فإنّهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزَمات ، وركد عليهم البلاء ، واشتدّ الجدب ، واحتاجوا إلى الاستمطار ، اجتمعوا وجَمَعوا ما قَدَروا عليه من البقر ، ثم عقدوا فى أذنابها و بين عراقيبها السَّلَع والعُشَر[١] ثم صعدوا بها فى جبل وعرٍ ، وأشعلوا فيها النِّيرانَ ، وضجُّوا بالدعاء والتَّضرُّع . فكانوا يرون أنّ ذلك من أسباب السُّقيا . ولذلك قال أُميّة[٢] :

سَنَةٌ أزمة تخيَّل بالنـــا س تَرى للعضاهِ فيها صريرا[٣]
إذ يسَفُّون بالدَّقيق وكانوا قبل لا يأ كلون شيئا فطيرا[٤]
و يسوقون باقراً يطرد السَّهـ لَ مَهازيلَ خشيةً أن يَبُورا[٥]
عاقدين النار فى شُكرُ الأذْ نابِ عمداً كيماتَهيج البحورا[٦]

---

(١) السلع ، بالتحريك ، والعشر بضم ففتح : ضربان من الشجر كان العرب يأخذون حطبهما للغرض الذى ذكره الجاحظ .

(٢) أمية بن أبى الصلت ، أحد الشعراء المخضرمين ، أدرك الإسلام ولم يسلم .

(٣) العضاه : ضرب من عظام الشجر .

(٤) الفطير : الذى عجل خبزه ولم يترك حتى يختمر .

(٥) الباقر : جماعة البقر . مهازيل : نحاف قد هزلتها الأزمة . يبور : يهلك .

(٦) الشكر : جمع الشكير ، وهو الشعر بين الطويل والقصير .

فاشتوت كلُّها فهاجَ عليهم ثمّ هاجت إلى صَبيرٍ صبيرا(١)
فرآها الإله تُرْشِمُ بالقَطْرِ وأمسى جَنابُهم ممطورا(٢)
سَلَعٌ ما ومثله عُشَرٌ ما عائلٌ ما وعالتِ البيقورا(٣)

هكذا كان الأصمعيّ ينشد هذه الكلمة ، فقال له علماء بغداد : صحّفْتَ ، إنما هو « البيقور » ، مأخوذة من البقرة .

وأنشد الجحذميُّ للورَل الطائي :

لا درَّ درُّ رجالٍ خابَ سعيهمُ يَستمطرون لدَى الأزْمات بالعُشَر
أجاعلٌ أنت بيقوراً مُسَلَّعَةً وسيلةً لك بينَ الله والمطرِ(٤)

---

(١) كلها ، أى كل الأذناب . الصبير : السحاب يثبت يوماً وليلة ولا يبرح ، كأنه يصبر ، أى يحبس .
(٢) أرشمت الأرض : بدا نبتها . القطر : المطر .
(٣) عال الشيء فلانا : ثقل عليه .
(٤) مسلعة : وضع فى أذنابها وبين عراقيبها السلع ، وقد مضى تفسيره .

٩٢

عبادة النار وتعظيمها

وما زال الناسُ كافةً ، والأممُ قاطبةً — حتّى جاء الله بالحق — مولَعين بتعظيم النار ، حتّى ظَنَّ كثيرٌ من الناس لإفراطهم فيها أنّهم يعبدونها .

فأمّا النار العلوية كالشّمس والكواكب فقد عُبِدت البتّة . قال الله تعالى : (وجدتُها وقَومَها يَسجُدونَ للشّمسِ مِن دونِ الله) .

وقد يجيء في الأثر وفي سنة بعض الأنبياء ، تعظيمُها على جهة التعبُّد والمِحنة ، وعلى إيجاب الشُّكر على النِّعمة بها وفيها . فيغلط لذلك كثير من الناس فيجُوزون الحدَّ .

ويزعُم أهل الكتاب أنّ الله تعالى أوصاهم بها وقال : «لا تطفئوا النِّيران من بيوتي» . فلذلك لا تجد الكنائس والبِيَع[1] ، وبيوت العبادات ، إلاّ وهي لا تخلو من نارٍ أبداً ، ليلاً ولا نهارا ، حتّى اتّخذَتْ للنِّيرانِ البيوتَ والسَّدَنة[2] ، ووقفوا عليها الغَلاّت الكبيرة .

ورُوى أنّ أعرابيًّا اشتدّ عليه البردُ ، فأصاب نارا ، فدنا منها ليصطليَ بها وهو يقول : اللهمّ لا تحرِمْنيها في الدنيا ولا في الآخرة !!

---

(١) جمع بيعة ، بالكسر ، وهو كنيسة النصارى . (٢) السادن : خادم بيت الصنم .

٩٣

المجاز والتشبيه فى الأكل

وقد يقولون ذلك[١] أيضاً على المثل ، وعلى الاشتقاق وعلى التشبيه .

فإن قلتم : فقد قال الله عزّ وجلّ فى الكتاب : (الذين قالوا إنّ الله عَهِد إلينا ألّا نؤمنَ لرسولٍ حتّى يأتينا بقُربانٍ تأكلُه النّار) ، فقد علِمْنا أن الله ، عزّ وجل ، إنما كلَّمهم بلغتهم .

وقد قال أوس بن حجر :

فأشرطَ فيها نفسَه وهو مُعْصِمٌ ... وألقى بأسبابٍ له وتوكّلا[٢]

وقد أكلتْ أظفارَه الصّخْرُ كلّما ... تعايا عليه طولُ مَرْقًى توصّلا[٣]

فجعل النحتَ والتنقّص أكلاً .

وقال خُفاف بن نَدْبة :

أبا خُراشَةَ أمّا كنت ذا نفرٍ ... فإن قوميَ لم تأكلهم الضّبُعُ[٤]

---

(١) أى الأكل .

(٢) أشرط نفسه : جعلها علامة ، أى هيأها لهذه النبعة التى يريد الحصول عليها ليصنع منها القوس . معصم : معتصم بالحبل الذى دلاه فى صدع الجبل ليصل إلى النبعة . الأسباب : الحبال .

(٣) الصخر مجازى التأنيث ، لذلك أنث له الفعل . تعايا عليه : أعجزه .

(٤) النفر : القوم والرهط . أراد قوماً كثيرى العدد .

والضبع : السنة . فجعل تنقّص الجدبِ والأزمةِ أكلاً .

وقال مِرداسُ بن أُدَيّة :

وأدّت الأرضُ منّى مثل ما أكلَتْ   وقرّبوا لحساب القِسْط أعمالى[١]

وأكل الأرضَ لما صار فى بطنها : إحالتها له إلى جَوهَرها .

---

(١) القسط ، بالكسر : العدل .

٩٤

باب آخر فى المجاز والتشبيه بالأكل

وهو قول الله عزّ وجلّ : (إنّ الذينَ يأكُلُونَ أموالَ اليتامَى ظُلْماً) ، وقوله تعالى ، عزّ اسمُه : (أكّالون للسُّحْت[(١)]) . وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ، ولبِسوا الحُلَل ، وركبوا الدوابَّ ، ولم يُنْفِقُوا منها درهماً واحداً فى سبيل الأكل .

وقد قال الله عزّ وجــــل : (إنّما يأكُلون فى بُطونِهِمْ ناراً) . وهذا مجازٌ آخر .

وقد قال الشاعر[(٢)] فى أخْذِ السِّنينَ من أجزاء الخمر :

أكلَ الدَّهْرُ ما تَجسَّم منها وتبقَّى مُصاصَها المكنونا[(٣)]

وقال الشاعر :

مرَّت بنــا تختال فى أربعٍ يأكل منها بعضُها بعضا[(٤)]

---

(١) السحت، بالضم : ماخبث من المكاسب. قالوا: سمى بذلك لأنه يسحت البركة ، أى يذهبها .

(٢) هو أبو نواس، من خمرية رائعة له فى ديوانه ٣٣٨ مطلعها :

أدر الكأس حان أن تسقينا وانقر الدف إنه يلهينا

(٣) تجسم ، أى صار جسما . يريد أنه لم يبق من الخمر إلا روحها ، وذلك افرط رقتها . وتبقى ، أى أبقى وترك . المصاص ، بالضم : خالص كل شىء .

(٤) أربع ، أى من صواحبها . أراد أنها فى تثنيها وتأودها وتعطفها كأنما يأكل بعضها بعضا .

وإذا قالوا : أكله الأسدُ ، فإنّما يذهبون إلى الأكل المعروف . وإذا قالوا : أكله الأسود[1] ، فإنما يعنون النّهش واللّدغ والعضّ فقط .

وقد قال الله عزّ وجلّ : (أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحمَ أخيه مَيْتاً) .

وقال قائل لإسماعيل بن حمّاد : أيُّ اللّحمان أطيب ؟ قال : لحوم الناس ! هى والله أطيَبُ من الدّجاج ، ومن الفراخ ، والعُنوز الحُمْر[2] .

ويقولون فى باب آخر: فلانٌ يأكل الناس : وإن لم يأكلْ من طعامهم شيئاً .

وأما قول أوس بن حجر :

وذو شُطباتٍ قدّه ابنُ مجدّعٍ له رونقٌ ذَرِّيُّه يتأكّلُ[3]

فهذا على خلاف الأوّل . وكذلك قول دُهمان النهرىّ :

سألَتنِى عن أُناسٍ أُكِلُوا شرِبَ الدّهرُ عليهم وأكلْ

فهذا كلُّه مختلف ، وهو كلُّه مجاز .

---

(١) الأسود : ضرب خبيث من الأفاعى .

(٢) العنوز : جمع عنز .

(٣) الشطبات : الخطوط التى فى السيف . ابن مجدع : أحد صناع السيوف . ذرى السيف : ماؤه وفرنده . التأكل : شدة البريق .

٩٥

ألوان النيران والأضواء

وزعموا أن النارَ حمراء ، وذهبوا إلى ما ترى العينُ ، والنار في الحقيقة بيضاء .

وكلُّ نورٍ وضياء هو أبيض ، وإنما يحمرُّ في العين بالعَرَض الذي يَعرِضُ للعينِ ، فاذا سَلِمَتْ من ذلك ، وأفضت إليه العينُ رأته أبيضَ . وكذلك نار العود تنفصل من العود ، وكذلك انفصال النار من الدُّهن ومعها الدُّخان ملابساً لأجزائها ، فاذا وقعت الحاسّة على سوادٍ أو بياضٍ في مكانٍ واحد ، كان نتاجهما في العين مَنْظرةَ الُحمرة .

ولو أنَّ دُخاناً عرضَ بينك و بين قُرص الشمس أو القمر ، لرأيتَه أحمر . وكذلك قرص الشمس في المشرق أحمر وأصفر ، للبُخار والغبار المعترض بينك و بينه . والبخار والدُّخانُ أخَوانِ .

ومتى تحلّق القرصُ في كبد السماء[1] فصار على قمّة رأسك ، ولم يكن بين عينيك و بينه إلاّ بمقدار ما تمكّنَ البخار من الارتفاع في الهواء صُعُداً — وذلك يسير قليل — فلا تراه حينئذ إلاّ في غاية البياض .

---

(١) أي وسطها .

وإذا انحطَّ شرقاً أو غرباً صار كلُّ شيء بين عينيك وبين قرصها من الهواء ، ملابساً للغبار والدُّخان والبُخار ، وضروب الضَّباب والأنداء ، فتراها إمَّا صفراء ، وإما حمراء .

ومَن زعَم أن النار حمراء فلم يكذِبْ إنْ ذهبَ إلى ما ترى العين ، ومَن ذهب إلى الحقيقة والمعلوم فى الجوهرية ، فزعم أنها حمراء ، ثم قاس على ذلك ، جَهِلَ وأخطأ .

وقد نجد النار تختلف على قدر اختلاف النِّفط الأزرق والأسود والأبيض ، وذلك كلُّه يدور فى العين مع كثرة الدخان وقلَّته .

ونجد النار تتغيَّر فى ألوانها فى العين على قدر جفوف الحطب ورطوبته ، وعلى قدر أجناس العيدان والأدهان ، فنجدها شقراء ، ونجدها خضراء إذا كان حطبها مثل الكبريت الأصفر .

٩٦

تعظيم زرادشت لشأن النار

وزَرَادُشْت هو الذي عظَّم النار وأمَرَ بإحيائها ، ونهى عن إطفائها ، ونَهى الحُيَّضَ عن مَسِّها والدنوِّ منها . وزعم أن العقاب في الاخرة إنما هو بالبرد والزمهرير والدَّمَق[1] .

وزعم أصحاب الكلام أن زرادشت — وهو صاحب المجوس — جاء من بَلْخ[2] وادَّعى أنَّ الوحي نزل عليه على جبال سيلان[3] ، وأنه حين دعا سُكَّانَ تلك الناحية البـاردة ، الذين لا يعرفون إلاّ الأذى بالبرد ، ولا يضربونَ المثل إلاّ به ، حتى يقول الرجلُ لعبده : لئن عدتَ إلى هذا لأنزعنَّ ثيابك ، ولأقيمنَّك في الريح ، ولأوقفنَّك في الثلج !! فلمّا رأى موقع البرد منهم هذا الموقعَ ، جَعَلَ الوعيدَ بتضاعفه ، وظنَّ أنَّ ذلك أزجَرُ لهم عمّا يكره .

وزرادشت في توعُّده تلك الأمَّةَ بالثلج دونَ النّار ، مُقِرٌّ بأنه لم يُبْعَثْ

---

(١) الدمق ، بالتحريك : الثلج مع الريح يغشى الإنسان من كل أوب حتى يكاد يقتل من يصيبه .

(٢) بلخ : مدينة كبيرة بخراسان .

(٣) جبل بقرب مدينة أردبيل بأذربيجان .

إلاّ إلى أهل تلك الجبال . وكأنّه إذا قيل له : أنت رسولٌ إلى مَنْ ؟ قال : لأهل البلاد الباردة ، الذين لابدّ لهم من وعيد ، ولا وعيدَ لهم إلاّ بالثلج ؟ وهذا جهل منه . ومَن استجابَ له أجهلُ منه

* * *

وقد عارضَنى بعض المجوس وقال : فلعلّ أيضاً صاحبكم إنّما توعّد أصحابه بالنار لأنّ بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دَمَق[1] ، وإنّما هى ناحية الحرور ، والوهَج والسّموم ؛ لأنّ ذلك المكروه أزجرُ لهم . فرأى هـذا المجوسىُّ أنه قد عارضنى .

فقلت له : إنّ أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحرّ فى الصَّيف ، وشدّة البرد فى الشِّتاء ؛ لأنها بلادُ صخورٍ وجبال . والصَّخر يقبل الحرّ والبرد ، ولذلك سمّت الفرس بالفارسية ، العربَ والأعرابَ : « كَهْيان » والـكَهْ بالفارسية هو الجبلَ . فمتى أحببت أن تعرفَ مقدار برد بلادهم فى الشِّتاء وحرّها فى الصَّيف ، فانظر فى أشعارهم ، وكيف قسّموا ذلك ، وكيف وضَعوه ؛ لتعرف أنّ الحالتين سواء عندهم فى الشدّة .

والبلاد ليس يشتدُّ بردُها على كثرة الثلج وقلّته ، فقد تسكون بلدةٌ أبردَ وثلجُها أقلّ . والمـاء ليس يجمد للبرد فقط ، فيـكون متى رأينـا بلدةً ثلجُها أكثر ، حكَمنا أنّ نصيبَها من البَرد أوفر .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ١٧٦ .

وقد تكون الليلة باردةً جدًّا ، وتكون صِنَّبرةً[1] فلا يجمد الماء ، ويجمُد فيما هو أقلُّ بردا . وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذاتِ الريح ، على خلاف ما يقدِّرون ويظنُّون .

وقد خبَّرني مَنْ لا أرتاب بخبَره ، أنّهم كانوا في موضع من الجبل ، يستَغْشُون به بلبس المبطَّنات[2] ، ومتى صبُّوا ماء في إناء زجاجٍ ، ووضعوه تحت السَّماء ، جَمَد من ساعته .

فليس جمود الماء بالبرد فقط ، ولا بدَّ من شروطٍ ومقادير ، واختلاف جواهر ، ومقابلات أحوال ، كسرعة البرد في بعض الأدهان وإبطائه عن بعض ، وكاختلاف عمله في الماء المُغْلَى ، وفي الماء المتروك على حاله ، وكاختلاف عمله في الماء والنبيذ ، وكما يعترى البولَ من الخثورة والجمود ، على قدر طبائع الطعام ، والقلّة[3] .

والزَّيت خاصَّةً يصيبه المقدار القليل من النار ، فيستحيل من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحَرُّ .

---

(١) الصنبرة : الشديدة البرد .

(٢) يستغشون : يتغطون . المبطنات ، يريد بها الثياب المبطنة بالفراء ونحوها .

(٣) أى والكثرة .

وحجّة أخرى على المجوس : وذلك أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال : لم أُبعَثْ إلاّ إلى أهل مكّة — لكان له متعلَّقٌ من جهة هذه المعارضة .

فأمّا وأصل نبوته والذى عليه مخرج أمره وابتداء مبعثه إلى ساعة وفاته ، أنّه المبعوث إلى الأحمر والأسود[١]، وإلى الناس كافّةً ، وقد قال الله تعالى : (قل يأيُّها الناسُ إنّى رسولُ الله إليكم جميعاً) ، وقد قال تعالى : (نذيراً للبَشَر) — فلم يبقَ أن يكون مع ذلك قولُهم معارضةً ، وأن يُعَدَّ فى باب الموازنة .

---

(١) أى إلى العجم والعرب ؛ لأن الغالب على ألوان العجم البياض والحمرة ، والغالب على ألوان العرب السمرة والأدمة .

٩٧
اختلاف أنواع الغرق

وإذا غرِقت المرأةُ رسَبَتْ ، فاذا انتفخت وصارت فى بطنها ريح ، وصارت فى معنى الزِّقّ ، طفا بدنُها وارتفع ، إلاّ أنّها تكون منكبّةً ، ويكونُ الرجلُ مستلقياً .

وإذا ضربت عنقُ الرجل وأُلقى فى الماء لم يرسُب ، وقام فى جوف الماء وانتصب ولم يغرق ، ولم يلزم القعر ، ولم يَطفُ . كذلك يكون إذا كان مضروب العُنق ، كان الماء جارياً أو كان ساكناً ، حتى إذا خفّ وصار فيه الهواء ، وصار كالزق المنفوخ ، انقلبَ وظهر بدنُه كلُّه ، وصار مستلقياً ، كان الماء جارياً أو كان قائماً .

فوقوفه وهو مضروبُ العنُق ، شبيهٌ بالذى عليه طباعُ العقرب التى فيها الحياة : إذا ألقيتَها فى ماء غَمْرٍ[١] ، لم تطفُ ولم ترسُب ، وبقيت فى وسط عُمق الماء ، لا يتحرّك منها شىء .

---

(١) الغمر ، بالفتح : الكثير .

٩٨

خبر وشعر فى الماء

قالوا : مدّ الشعبى [١] يدَه وهو على مائدة قُتيْبة بن مُسلم [٢] يلتمس الشراب ، فلم يَدرِ صاحبُ الشراب : اللبنَ ، أم العسل ، أم بعض الأشربة ؟ فقال له : أىُّ الأشربةِ أحبُّ إليك ؟ قال ؟ أعزُّها مفقودا ، وأهونُها موجودا ! قال قتيبة : اسقه ماء .

وكان أبو العَتَاهية فى جماعة من الشعراء عند بعض الملوك ، إذ شرب رجلٌ منهم ماء ثم قال : بَرَد الماء وطابَ ! فقال أبو العتاهية : اجعله شعرا . ثم قال مَن يُجِيز هذا البيت ؟ فأطرق القومُ مُفكرِين ، فقال أبو العَتاهية : سبحان الله وما هذا الإطراق ؟ ثم قال :

بَرَد الماء وطابا حبّذا الماء شرابا

وقال الله عز وجلّ : (أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ [٣]) ثم لم يذكرْه بأكثرَ من السلامة من التغيُّر ، إذ كان الماء متى كان خالصاً سالماً لم يَحتجْ إلى أن

---

(١) هو عامر بن عبد الله بن شراحيل ، كان من كبار حفاظ الحديث . توفى بالكوفة سنة ١٠٣ .

(٢) قتيبة بن مسلم ، كان من عمال الحجاج على الرى ثم خراسان .

(٣) آسن : متغير .

يُشْرَبَ بشيء غيرِ ما فى خِلْقته من الصَّفاء والعُذوبة ، والبَرد والطِّيب والحسْن والسَّلَس فى الحَلْق .

وقد قال عدىٌّ بنُ زيد :

لو بِغَيْرِ المَاء حَلقِى شرِقٌ كنتُ كالغَصَّان بالماءاعتصارى[1]

وأوصت امرأةٌ ابنتَها بوصايا ، فكان منها : « وليكن أطيبَ طيبك الماء ! » .

ومن الأمثال :

فأصبحت ممّا كان بينى وبينها سِوى ذكرِها كالقابض الماء باليد

وأخذ المسيحُ عليه السلام فى يده اليمنى ماء وفى يده اليسرى خبزًا فقال : « هذا أبى ، وهذا أمّى » . فجعل الماء أبًا .

وما ظنُّكم بشرابٍ إذا خُبث ومُلح فصار مِلحاً زُعاقًا[1] ، وبحراً أُجاجا ، وَلَّد العنبر الوَرد[2] ، وأنْسَل الدرَّ النَّفيس[3] ، فهل سمعتَ بفحلٍ أكرمَ ممن نَجَلَه ، ومن نتاجٍ أشرَف ممَّن نَسَلَه .

وقال الله عزّ وجلّ : (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ[4] فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ

---

(١) الاعتصار : أن يغص بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو أن يشرب قليلا قليلا .

(٢) الورد : الأحمر .

(٣) أنسل : ولد . والدرة : اللؤلؤة العظيمة .

(٤) الصرح : القصر . وكان سليمان قد بنى لبلقيس قصرا من الزجاج ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره .

لُجَّةً(١) وَكَشَفَتْ عن ساقَيْهَا) ؛ لأنَّ الزُّجاجَ أكثرُ ما يُمدَح به أن يقال : كأنَّه الماء فى القيافى(٢) .

وقال الله عزّ وجل : (هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شرابه(٣)) .

وقال القُطاميّ :

وهن يَنْبِذْنَ مِن قولٍ يُصِبْنَ به مواقِعَ الماء مِن ذِي الغُلَّة الصادى(٤)

وقال الله عزّ وجل : (واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاء) . فيقال : إنه ليس شىء إلا وفيه ماء ، أو قد أصابه ماء ، أو خُلِق من ماء .

وقال الله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء(٥)) .

وقال عزّ وجلّ : (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّماء مَاء مُبَارَكاً) .

وحين اجتهدوا فى تسمية امرأة بالجمال والبركة ، والحسن والصفاء والبياض ، قالوا : « ماء السماء(٦) » ، وقالوا : المنذرين ماء السماء .

---

(١) اللجة : الماء العظيم .

(٢) القيافى : جمع قيفاء وقيفاة ، وهى الصحراء .

(٣) الفرات : العذب جدا .

(٤) الغلة : حرارة الجوف من العطش . الصادى : الظمآن .

(٥) أى قبل خلق السموات والأرض .

(٦) به لقبت أم المنذر بن امرئ القيس اللخمى ، وقيل لولدها بنو ماء السماء وهم ملوك العراق . وبه لقب عامر بن حارثة الأزدى ، قيل لولده بنو ماء السماء ، وهم ملوك الغساسنة .

ويقال : صِبْغٌ له ماء ، ولونٌ له ماء ، وفلان ليس فى وجهه ماء ، وردّنى فلانٌ ووجهى بمائه . قال الشاعر :

* ماء الحياء يجُول فى وجَناتِهِ *

وقالت أم فروة فى صفة الماء :

وما ماءُ مُزْنٍ أىَّ ماءٍ تقوله ... تحدَّرَ عن غُرٍّ طوال الذوائب (١)

بمنعَرَجٍ أو بطن وادٍ تحدَّبت ... عليه رياح المُزْن من كلِّ جانب (٢)

نَفَى نَسَمُ الرِّيح القَذَى عن مُتُونه ... فما إنْ به عَيبٌ تراه لشاربِ (٣)

بأطيَبَ ممن يَقْصُرُ الطَّرْفَ دونَه ... تُقَى اللهِ واستحياءُ بعضِ العواقب (٤)

والأبيضان : الماء واللبن . والأسودان : الماء والتمر .

وسواد العراق : ماؤه الكثير .

والماء إن كان له عُمقٌ اشتدَّ سوادُه فى العين .

وهو بَعْدُ طَهُورُ الأبدان ، وغَسُول الأدران (٥) .

وقالوا : هو كالماء الذى يطهِّر كلَّ شىء ولا ينجِّسُه شىء .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى بئر رُومة (٦) : « الماء لا ينجِّسه شىء » .

---

(١) تحدر : سقط . الغر : البيض ، عنى بها السحب .
(٢) تحدبت : تعطفت . المزن : السحب .
(٣) القذى : ما يقع فى الماء من تراب أو تبن ونحوه . المتون : صفحات الماء .
(٤) يقصره : يحبسه ويكفه . الطرف : العين .
(٥) الأدران : الأوساخ .
(٦) بئر رومة : بعقيق المدينة ، اشتراها عثمان بن عفان فتصدق بها .

ومنه مايكون الملح والبَرَد والثلج ، فيجتمع الحسن فى العين والكرمُ فى الصَّفاء والبياض ، وحُسن الموقع فى النَّفْس .

و بالماء يكون القَسَم ، كقول الشاعر :

غَضْبَى ولا واللهِ يا أهلها لا أشربُ الباردَ أو تَرضَى

ويقولون : لو علم فلانٌ أنَّ شُربَ الباردِ يَضَع من مروءته لَمَا ذاقه !

٩٩

بين خلق الحيوان وخلقه

وقد يكون الحيوانُ عجيبَ صَنْعة البدَن ، ثم لا يُذكَر بعْدَ حُسن الخَلْق بخلق كريم ، ولا حسٍّ ثاقب[١] ، ولا معرفةٍ عجيبة ، ولا صنعة لطيفة .

ومنه ما يكُون كالببغاء والنحلة ، والحمامة والثعلب ، ولا تكون الأعجوبة فى تصويره وتركيب أعضائه وتنضيد ألوان ريشه فى وَزْن تلك الأشياء التى ذكرناها ، أو يكون العَجَب فيما أعطىَ فى حَنْجَرته من الأغانى العجيبة ، والأصوات الشجيّة المطربة ، والمخارج الحسنة — مِثلَ العجبَ فيما أعطِىَ من الأخلاق الكريمة ، أوفى صنعة الكفّ اللطيفة ، والهِداية الغريبة ، أو المِرفق النافع[٢] ، أو المضرة التى تدعُو إلى شدّة الاحتراس ودقّة الاحتيال ، فيقدم فى الذِّكر لذلك .

وأىُّ شىء أعجبُ من العَقْعَق[٣] وصِدْقِ حِسِّه ، وشدّةِ حذَره ،

---

١) الثاقب: الصادق ، وأصله ا نافذ .

٢) المرفق : كل ما استعين به .

(٣) العقعق : طائر على قدر الحمامة وفى شكل الغراب طويل الذنب . يقال فى المثل « ألص من عقعق » ،وذلك لكثرة سرقته .

وحُسن معرفته ؟ ثمَّ ليس فى الأرض طائرٌ أشـــدُّ تضييعاً لبيضه وفَرخِه منه .

والحُبارَى مع أنها أحمقُ الطَّير تحوطُ بيضَها أو فِراخَها أشدَّ الحياطة ، وبأغمض معرفة ، حتى قال عثمان بن عفَّان : « كلُّ شىء يحبُّ ولَده حتى الحبارى ! » . يَضربُ بها المثلَ فى المُوق[(١)] .

ثم العَقعق مع حِذْقِه بالاستلاب وبسرعة الخَطْفِ لا يَستعمل ذلك إلاَّ فيما لا ينتفِـع به . فـكم من عِقد ثمين خطير ، ومن قرْطٍ شريف نفيس ، قد اختَطَفَ من بين أيدى قوم ، فإمَّا رمَى به بعد تحلُّقه فى الهواء ، وإمَّا أحرزَه ولم يلتفتْ إليه أبدا .

وزعم الأصمعىُّ أن عَقعقاً مرة استلب سِخابا[(٢)] كريما لقوم . فأخَذَ أهلُ السِّخاب أعرابيةً كانَتْ عندهم ، فبينما هى تُضرَبُ وتُسحبُ وتُسَبّ ، إذْ مَرَّ العَقعقُ والسِّخاب فى منقارِه ، فصاحوا فرمى به ، فقالت الأعرابية وتذكَّرت السَّلامة بعد أنْ كانت قد ابتليَتْ ببلية أخرى :

ويوم السِّخاب من تعاجيبِ ربِّنا كما أنَّه مِن بلدة السوء نجَّانى

تعنى الذين كانت نزلتْ بهم من أهل الحاضرة .

---

(١) الموق : الحمق .
(٢) السخاب ، ككتاب : القلادة لا جوهر فيها .

١٠٠

مما قالوا فى السر

قال ابن ميّادة :

أتُظهِر ما فى الصّدر أم أنت كاتمه ... وكِتمانُه داءٌ لمن هو كاتِمُه
وإضمارُه فى الصّدر داءٌ وعِلّةٌ ... وإظهارُه شُنْعٌ لمن هو عالمه[١]

وتقول العرب : من ارتادَ لسرِّه فقد أشاعه[٢] !

ورأى الأوّل[٣] قد أذِن فى واحدٍ ، وهو قوله :

وسِرُّكَ ما كانَ عند امرئٍ ... وسِرُّ الثلاثةِ غيرُ الخفى

وقال الآخر فيما يوافق فيه المثَل الأوّل :

فلا تُفشِ سِرّكَ إلا إليكَ ... فإنّ لكلِّ نصيحٍ نصيحا[٤]
فإنى رأيت غُواةَ الرِّجا ... ل لا يتركون أديما صحيحا[٥]

---

(١) الشنع : القبح والفظاعة .

(٢) ارتاد : بحث لسره عمن يودعه لديه .

(٣) أى الشاعر القديم .

(٤) النصيح : المخلص . على أن السر يتنقل فى الإخوان وإخوان الإخوان ، وهكذا .

(٥) الغواة : جمع غاو ، وهو الضال الفاسد . الأديم : الجلد .

وقال مسكينٌ الدارميّ :

إذا ما خليلى خانني وائتمنته فذاك وَدَاعِيهِ وذاك وَداعُها(١)

رددتُ عليه وُدَّه وتركتها مطلَّقةً لا يُستطاعُ رِجاعُها

وإنّى امرؤٌ منّى الحياء الذى ترى أعيشُ بأخلاق قليلٍ خداعُها

واخِى رجالا لستُ مُطلِعَ بعضهم على سِرِّ بعضٍ غير أنّى جِماعُها(٢)

يظلُّون شتّى فى البلاد وسِرُّهم إلى صَخْرةٍ أعيا الرِّجالَ انصداعُها(٣)

وقال أبو مِحجَنٍ الثقفى :

وقد أجود وما مالِى بذى فَنَعٍ وأكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبةُ العُنُقِ(٤)

وقال عمر بنُ الخطاب رضى الله عنه : « من كَتمَ سِرّه كان الخيار فى يدِه » .

وقال بعضُ الحكماء : « لا تطلع وَاحداً من سِرّك إلاّ بقدر ما لا تجدُ فيه بُدًّا من معاونتك » .

وقال آخر : إنّ سِرّك من دَمِك ، فانظرْ أيْن تُريقُه !

وقال الآخر :

فإذا استودعْتَ سِرًّا أحــــدًا فقــد استَودعتَ بالسِّرِّ دمَك

---

(١) وداعيه ، أى وداع الخليل . وداعها ، أى وداع الزوجة .

(٢) الجماع : اسم لما يجمع به الشىء .

(٣) شتى : متفرقين . الانصداع : الانشقاق .

(٤) الفنع : كثرة المال .

وقال قيسُ بنُ الخطيم :

وإنْ ضَيَّعَ الإخوانُ سِرًّا فإنّنى كَتومٌ لأسرار العَشيرِ أمِينُ
يكون له عندى إذا ما ائتمنتُه مكانٌ بسَوداء الفؤاد مَكينُ(١)

وقيل لمزبّدٍ(٢) : يا مزبّد ، ما هذا الذى تحتَ حِضْنك ؟ فقال : يا أحمق ، فلِمَ خَبّأْتُه ؟!

وقال أبو الشِّيص :

ضع السِّرَّ فى صَمّاء ليست بصخرةٍ صَلودٍ كما عايَنْتَ من سائر الصَّخرِ(٣)
ولكنّها قلبُ امرئٍ ذى حفيظةٍ يرى ضَيعةَ الأسرار هتْرًا من الهتْرِ(٤)
يموت وما ماتت كرائمُ فعلِهِ ويَبْلى وما يَبْلى نَثاه على الدَّهرِ(٥)

وقال سُحَيْمٌ الفقعسىُّ فى نشر ما يُودَع من السِّرِّ :

ولا أكتُمُ الأسرارَ لكنْ أذيعُها ولا أدَعُ الأسرار تَغلِى على قلبى
وإنَّ قليل العقل من بات ليلةً تقلِّبُه الأسرار جنباً إلى جنب !!

وكان أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ سيّارٍ النَّظّامُ أضْيَقَ الناسِ صَدراً بحَمْلِ

---

(١) سوداء الفؤاد : باطنه . مكين : من التمكن .
(٢) مزبد المدينى : من مشهورى أصحاب النوادر والفكاهة .
(٣) صلود : صلبة .
(٤) الهتر ، بالفتح : مزق العرض ، وبالكسر : الباطل والخطأ فى الكلام ، وبالضم ذهاب العقل من كبر أو مرض أو حزن .
(٥) النثا ، بتقديم النون : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيئ .

سرٍّ ، وكان شرُّ ما يكونُ إذا يؤكِّدُ عليه صاحبُ السِّرِّ ، وكان إذا لم يؤكِّد عليه ربَّما نسِيَ القصَّةَ فيسلمُ صاحبُ السِّرِّ .

وقال له مرَّةً قاسمٌ التَّمَّار : سبحانَ اللهِ ، ما فى الأرض أعجبُ منك ! أودعتك سرًّا فلم تصبر عن نشره يوماً واحداً ، واللهِ لأشكونَّكَ للناسِ !! فقال : يا هؤلاء ، سَلوه ، نممتُ عليه مرَّةً واحــــدة أو مرَّتين أو ثلاثاً أو أربعاً ، فلمَن الذنبُ الآن ؟

فلم يرضَ بأن يشاركَه فى الذّنب حتى صيَّرَ الذَّنبَ كلَّه لصاحب السِّرّ .

وقال رجلٌ من بنى سعد :

إذا ما ضاق صدرُكَ عن حديثٍ فأفْشَتْه الرجالُ فمن تلوم
إذا عاتبتُ مَنْ أفشَى حديثى وسرِّى عندَه فأنَا الظَّلُومُ
وإنِّى حين أسْأَم حَمْلَ سرِّى وقد ضمَّنته صدرى سَئُومُ
ولست محدِّثاً سرِّىَ خليلاً ولا عِرسى إذا خطَرَتْ همومُ
وأطوِى السِّرَّ دون الناسِ إنِّى لِما استُودِعْتُ من سرٍّ كتومُ

١٠١

حب العصافير فراخها

وليس فى الأرض طائر ولا سَبع ولا بهيمة أحْنَى على ولدٍ ولا أشدّ به شغَفًا[١] وعليه إشفاقًا ، من العصافير . فاذا أُصيبَتْ بأولادها أو خافَتْ عليها العطَب[٢] . فليس بين شيء من الأجناس من المساعدة مثلُ الذى مع العصافير ؛ لأنّ العصفورَ يرى الحية قد أقبلت نحو جُحْره وعُشِّه ووكره ، لتأكل بيضه أو فراخه ، فيصيح ويرنِّق[٣] ، فلا يسمع صوته عصفورٌ إلاّ أقبل إليه وصنع مثلَ صنيعه بتحرُّقٍ ولَوعة وقلق ، واستغاثة وصُراخ ، وربّما أفلتَ الفرخُ وسقط إلى الأرض ، وقد ذهبت الحية ، فيجتمعن عليه إذا كان قد نبت ريشُه أدنى نبات ، فلا يَزلْن يهيِّجنه ويَطرن حوله ، لعلمها أن ذلك يُحدِث للفرخ قوّةً على النهوض ، فإذا نهض طِرن حواليه ودُونه ، حتّى يَحتثِثْنَه بذلك العمل .

ولو أن إنسانًا أخذ فَرخَيْ عصفورٍ من وكره ، ووضعهما بحيث يراهما

---

(١) الشغف : الحب الشديد .

(٢) العطب : الهلاك .

(٣) رنق الطائر ترنيقا : خفق بجناحه فى الهواء وثبت فلم يطر .

أبواهما فى منزله ، لوجَـدَ العصفور يتقحّمُ فى ذلك المنزل[١] حتى يدخُـلَ فى ذلك القفص ، فلا يزال فى تعهُّدِه بمـا يُعيشُه ، حتّى يستغنىَ عنـه . ثمّ يحتملان فى ذلك غايةَ التغرير والخِطـار[٢] . وذلك من فرْط الرّقّة على أولادهما .

---

(١) التقحم : الدخول بلا روية ولا تفـكير .

(٢) الخطار : المخاطرة .

ـ ١٠٢ ـ

بعض خصال العصفور

والعصفور لا يستقرُّ ما كان خارجاً من وَكره ، حتى كأنه فى دوام الحركة صبيٌّ . وله صوتٌ حديدٌ مؤذٍ .

وزعموا أنّ البلبلَ لا يستقرُّ أبداً . وهذا غلط ؛ لأن البلبل إنّما يقلَق لأنه محصورٌ فى قفص . والذين عاينُوا البلابلَ والعصافير فى أوكارها ، وغيرَ محصورة فى الأقفاص — يعلمون فضلَ العصفور على البلبل فى الحركة .

فأمّا صِدق الحِسّ ، وشدّة الحذر والإزكان(١) الذى ليس عند خبيث الطَّير ، ولا عند الغراب — فإنّ عند العصفور منه ماليس عند جميع ما ذكَرنا لو اجتمعتْ قواهم ، ورُكِّبوا فى نصابٍ واحد .

من ذلك أنه يُغَمُّ بحدّة صوته بعَض من يقرُبُ منه ، فيصيح به ويهوِى بيديه إلى الأرض ، كأنه يريد أن يَرميه بحجرٍ ، فلا يراه يَحفِل بذلك . فإن وقَعتْ يدُه على حصاةٍ طارَ من قبل أن يتمكّن من أخْذِها .

وزعم صاحبُ المنطق أنّ بين الحمار وعصفور الشَّوك عداوةً . وقال : لأنّ

---

(١) الإزكان : الفطنة والحس الصادق .

الحمار يَدخُل الشّجرَ والشّوك ، فربّما زاحَمَ الموضعَ الذى فيه وَكرُه فيبدِّدُ عُشَّه وربمّا نهق الحمارُ فسقط فرخ العصفور أو بيضُه من جوف وكره .

قال : ولذلك إذا رآه العصفورُ رنّقَ[1] فوق رأسه ، وعلى عينيه ، وآذاه بطيرانه وصياحه .

وربّما كان العصفور أبلق . ويصاب فيه الأصْبَغُ [2] ، والجرادى[3] ، والأسود ، والقَقيع [4] ، والأغْبَس [5] . فإن أصابوه كذلك باعـوه بالثمن الكثير .

---

(١) رنق ترنيقا : خفق بجناحيه ورفرف ولم يطر .
(٢) الأصبغ من الطير : المبيض الذنب .
(٣) الجرادى : ما لونه لون الجراد .
(٤) القَقيع : الأبيض ، بوزن أمير ، وسكيت .
(٥) الأغبس : ما لونه الغبسة ، وهى لون الرماد .

١٠٣

مثل الشيخ والعصفور

وفي المثل : أن شيخاً نصبَ للعصافير فخًّا ، فارتَبْنَ به و بالفخ(١) ، وضربَه البردُ ، فكلما مَشى إلى الفخِّ وقد انضمّ على عصفورٍ فقبض عليه ودقّ جَناحه(٢) وألقاه في وعائه — دمَعتْ عينهُ مما كان يصكّ وجهَه من برد الشَّمال(٣)

فتوامرت العصافيرُ بأمره(٤) ، وقلن : لابأس عليكن ، فإنه شيخٌ صالحٌ رحيم رقيقُ الدمعة ! فقال عصفورٌ منها :

« لاتنظروا إلى دُموع عَيْنَيه ، ولكن انظروا إلى عمل يَدَيْه ! » .

---

(١) ارتبن : من الريبة ، وهى الشك .

(٢) دق جناحه : كسره .

(٣) يصك : يضرب . والشمال : الريح الشمالية .

(٤) توامرت : تآمرت ، أى تشاورت .

١٠٤

القول فى العقارب والفأر والسنانير

نقول فى العقارب والفأر والجرذان بما أمكن من القول . وإنما ذكرنا العقاربَ مع ذِكرنا للفأر ، للعداوة التى بين الفأر والعقارب . كما رأينا أن نذكر السنانير فى باب ذكر الفأر ، للعداوة التى بينهما .

فإن قلت : قد عرَفنا عداوةَ الفأر للعقرب ، فكيف تُعادِى الفأرة السّنّور ، والفأرة لا تُقاوم السِّنَّور .

قيل : لعمرى إنّ جرذان أنطاكية لتُساجل السنانير فى الحرب التى بينهما ، وما يَقُوم لها ولا يقوى عليها إلاّ الواحدُ بعد الواحد . وهى بخُراسانَ قويّةٌ جدًّا ، وربّما قطعَتْ أذن النائم .

وفى الفأر ما إذا عضّ قتلَ . أخبرنى أبو يونس الشريطىّ أنه عايَنَ ذلك .

وأنا رأيت سنّوراً عندنا ساور جُرذاً فى بيت الحطب ، فأفلتَ الجرذُ منه وقد فقأ عينَ السنّور .

والقتال يكون بين الدِّيَكة ، وبين الكباش ، والكلاب ، والسُّمانَى ، والقَبَج ، وضروبٍ مما يَقبل التحريش .

ويزعمون أنهم لم يَرَوا قتالاً قطُّ بين بهيمتين ولا سبُعَين، أشدَّ مِن قتالٍ يكون بين جُرَذَين. فإذا رُبط أحدُهما بطرفِ خيطٍ وشُدَّ رجل الآخَر بالطَّرف الآخر من الخيط، فلهما عند ذلك من الخلْب والخمش[1]، والعضِّ، والتَّنييب[2]، والعِفَاس[3]، ما لا يوجَد بين شيئين من ذوات العِقَار[4] والهِراش. إلاَّ أنَّ ذلك ما داما فى الرِّباط، فإذا انحلَّ أو انقطعَ ولَّى كلٌّ واحدٍ منهما عن صاحبه، وهربَ فى الأرض، وأخَذَ فى خِلاف جهته الآخَرُ.

وإنْ جُعِلا فى إناء من قوارير — أعنى الجرذَ والعقرب — وإنَّما ذكرتُ القوارير لأنَّها لا تَستُرعن عيون الناس صنيعَهما، ولا يستطيعان الخروج لملاسة الحيطان. فالفأرة عند ذلك تَختِل العقرب[5]. فإن قبضت على إبرتِها قرضَتْها. وإن ضربتها العقرب ضرباً كثيراً فاستنفدَتْ سمَّها، كان ذلك من أسباب حتفها.

---

(١) مما بمعنى الخدش والجرح.
(٢) التنييب: إنشاب الأنياب.
(٣) العفاس: الصراع.
(٤) العقار: مصدر، كالمعاقرة.
(٥) الختل: الخداع

١٠٥
تدبير الجرذ

وللجرذ تدبير فى الشيء يأكله أو يحسوه ؛ فإنّه ليأتى القارورة الضيّقة الرأس ، فيحتال حتّى يدخل طرَفَ ذنبه فى عنقها ، فكلّما ابتلّ بالدُّهن أخرجه فلطَمَه[١] ، ثم أعاده ، حتّى لا يدعَ فى القارورة شيئاً .

ورأيتُ من الجرذان أعجوبة : وذلك أنّ الصيّادة[٢] لما سقطت على جرذٍ منها ضخمٍ اجتمعن لإخراجه وسلّ عُنُقِه من الصيّادة ، فلمّا أعجزهنّ ذلك قَرَضْنَ ذلك الموضع المنضمّ عليه من جميع الجوانب ؛ ليتّسع الخرقُ فيجذبنَه . فهجمتُ على نُحاتةٍ[٣] لو اعتمدتُ بسكّينٍ على ذلك الموضع لظننتُ أنّه لا يمكننى إلاّ شبيهٌ بذلك .

وزعَمَ بعضُ الأطبّاء أن السنّورَ إنما يدفِن خُرأه ، ثم يعودُ إلى موضعه فيشتَمُّه ، فإن كان يجدُ من ريحِهِ بعدُ شيئاً زاد عليه من التُّراب ؛ لأنّ الفأرة لطيفةُ الحِسِّ ، جيّدةُ الشمّ ، فإذا وجدَتْ تلك الرائحةَ عرفَتْها ، فأمعنَتْ فى الهرب ، فلذلك يصنع السنّورُ ما يصنع .

---

(١) اللطم : اللحس .

(٢) يعنى بالصيادة المصيدة .

(٣) النحاتة : البراية .

١٠٦

لعب السنور بالفأر

وبلغ من تحرُّزه واحتياطه ، أنّه يسكُن الشُّقوف ، فربّما فاجأه السنورُ وهو يريد أن يعبُر إلى بيته ، والسنورُ فى الأرض والفأرة فى السّقف ، ولو شاءت أن تدخُل بيتَها لم يكن للسنّور عليها سبيل ، فتتحيَّر ، فيقول السنّورُ بيده كالمشير بيساره : ارجع ! فإذا رجَعتْ أشار بيمينه : أنْ عُدْ ! فيعود . وإنّما يطلب أن تعيا ، أو تزْلَق ، أو يُدار بها(١) . ولا يفعل ذلك ثلاث مرّاتٍ حتى تسقطَ إلى الأرض ، فيثبَ عليها . فاذا وثبَ عليها لعبَ بها ساعةً ، ثمَّ أكلَها . وربّما خلّى سبيلَها وأظهر التغافُلَ عنها فتُمعِنُ فى الهرب ، فاذا ظنّت أنّهـا نجت وثب عليها وثبةً فأخَذها . فلا يزال كذلك كالذى يحبُّ أن يَسخَر من صاحبه ، وأن يخدعَه ، وأن يأخـذَه أقوى ما يكون طمعاً فى السلامة ، وأن يورثه الحسرةَ والأسفَ ، وأن يَلذَّ بتنغيصه وتعذيبه .

وقد يفعل مثلَ ذلك العقابُ بالأرنب ، ويفعل مثل ذلك السنورُ بالعقرب .

---

(١) يدار بها : يصيبها الدوار ، وهو شبه الدوران يأخذ فى الرأس .

١٠٧

فزع الناقة من الهر

وإذا وصفوا الناقةَ بأنها رُوَاع[(١)] شديدةُ التفزّع ، لفرط نشاطها ومرحها ، وصفوها بأنّ هرًّا قد نيَّبَ فى دَفِّها[(٢)]. وأكثر ما يذكرون فى ذلك الهرّ ؛ لأنه يجمع العضّ بالناب ، والخَمْشَ بالمخالب ؛ وليس كلُّ سبعٍ كذلك .

وقال ضابئُ بن الحارث :

بأدماء حُرجُوجٍ ترى تحت غَرزِها تهاويلَ هرّ أو تهاويلَ أخْيَلا[(٣)]

وقال أوس بن حجر :

كأن هرًّا جَنيباً عند مِغرضها والتفَّ ديكٌ برجليها وخنزيرُ

وقال عنترة :

وكأنما ينأى بجانب دَفِّها الـ وحشيِّ من هَزِجِ العشىِّ مؤوَّمِ[(٥)]

هرٌّ جنيبٌ كلّما عطفَتْ له غَضْبَى اتقاها باليدين وبالفمِ

(١) من الروع ، وهو الفزع .

(٢) التنييب : العض بالناب . والدف : الجنب .

(٣) الحرجوج : الجسيمة الطويلة على وجه الأرض . والغرز للناقة مثل الحزام للفرس . التهاويل : الصور والنقوش ، وهى أيضا ما يهول به ويفزع ، مفرده تهويل . والأخيل : طائر صغير فى أجنحته سواد ، ينقر ظهر البعير فيخزله .

(٤) جنيبا : مجنوبا ، أى مقودا إلى جنبها . والمغرض كالمحزم للفرس .

(٥) الوحشى : الجانب الأيمن . وهزج العشى هو الهر ؛ لأن السنانير أكثر صياحها بالعشيات . المؤوم : العظيم الرأس .

١٠٨

ضروب الفأر

قال : والفأر ضروب . فمنها الجرذان والفأر المعروفان ، وهما كالجواميس والبقر ، وكالبُخْت والعِراب . ومنها الزَّباب ، ومنها الخُلْد .

واليرابيع شكلٌ من الفأر . واسم ولد اليربوع دِرص مثل ولد الفأر .

ومن الفأر فأرة المِسْك ، وهي دويْبَّةٌ تكون في ناحية تُبَّت ، تصاد لنوافجها وسُرَرها[1] ، فإذا اصطادها صائد عَصَبَ سُرّتها بعصابٍ شديد ، وسُرّتُها مدلاّة ، فإذا أحكَمَ ذلك ذَبَحها — وما أكثَرَ من يأكلها — فإذا ماتت قوّر السُّرّةَ التي كان عصَبَها له والفأرةُ حيّة ، ثم دفَنها في الشّعير حتى يستحيل ذلك الدم المحتقِنُ هناك الجامدُ ، بعد موتها مسكا ذكيًّا ، بعد أن كان ذلك الدمُ لا يُرام نَتْنًا .

قال : وفي البيوت أيضاً قد يوجَد فأر مما يُقال له فأر المِسْك ، وهي جِرذانٌ سُود ، ليس عندها إلا تلك الرائحة اللازمة له .

قال : وفي الجرذان جنسٌ لما عبثٌ بالعقود والشُّنوف[2] ، والدراهم

---

(١) النوافج : جمع نافجة ، وهي وعاء المسك ، أي الجلدة التي يجتمع فيها . والسرر : جمع سرة .

(٢) جمع شنف ، بالفتح ، وهو القرط ، أو القرط الذي يلبس في أعلى الأذن .

والدَّنانير ، على شبيهٍ بالذى عليه خُلُق العَقعَق[١] إلاّ أنّ هذه الجرذانَ تفرح بالدنانير والدراهم ، وبخَشْخاش الحلْى[٢]. وذلك أنهـا تخرجها من جحرها فى بعض الزَّمان ، فتلعب عليهـا وحوالَيها ، ثم تنقلُها واحداً واحداً ، حتى تعيدها عن آخرها إلى موضعها .

فزعَمَ الشرْقى بن القُطامى : أنَّ رجلاً من أهل الشام اطَّلَعَ على جُرَذٍ يُخرِج من جُحره ديناراً ديناراً ، فلما رآه قد أخرجَ مالاً صالحـاً استخفَّه الحِرصُ ، فهمَّ أن يأخـذَه ، ثم أدركه الحزمُ وفتحَ له الرِّزق المقسوم باباً من الفطنة ، فقال : الرأىُ أن أمسِكَ عن أخذه ما دام يُخرِج ، فإذا رأيتهُ يُدخِلُ فعند أوّلِ دينارٍ يغيِّبه ويعيده إلى مكانه أثِبُ عليه فأجترفُ المالَ .

قال : ففعلتُ وعُدت إلى موضعى الذى كنت أراه منـه . فبينا هو يُخرج إذْ تركَ الإخراج ، ثم جعل يرقُص ويثب إلى الهواء ، ويذهب يَمنـةً ويسرةً ساعة ، ثم أخذَ ديناراً فولَّى به فأدخلَه الجُحر ، فلما رأيت ذلك قمتُ إلى الدَّنانير فأخذتُها ، فلمـا عاد ليأخذ ديناراً آخر فلم يجـد الدنانير ، أقبـلَ يثبُ فى الهواء ، ثم يضرب بنفسِه الأرضَ حتَّى مات .

وهذا الحديث من أحاديث النساء وأشباه النساء .

---

(١) العقعق : طائر له ولوع بالسرقة .

(٢) الخشخاش من الحلى : ما له خشخشة وصوت .

١٠٩

مساوى السنانير

قال صاحب الكتاب : والسِّنَّورُ لصٌّ لئيم ، وشرِهٌ خَئُون . فمن ذلك أنَّ صاحب المنزل يَرمِى إليه ببعض الطُّعم[1] فيحتمله احتمال المُريب ، حتى يُولِجَ به[2] خلفَ حُبٍّ أو راقود[3] ، أو عِدْلٍ[4] أو حطاب ، ثم لا يأكله إلاّ وهو يتلفّت يميناً وشِمالاً ، كالذى يخاف أن يُسلَبَ ما أُعطِىَ ، أو يُعثَرَ على سرقته فيُعاقَب .

ثم ليس فى الأرض خِبْثةٌ[5] إلاّ وهو يأكلها ، مثل الخنافس والجعلان[6] وبنات وَردان ، والأوزاغ[7] ، والحيّات ، والعقارب ، والفأر .

وهـذه الأنعامُ تدخل الغياضَ فتجتنب مواضعَ السموم بطبائعها .

---

(١) الطعم ، بضم الطاء : الطعام .

(٢) أى يدخل به .

(٣) الحب : الجرة الضخمة . والراقود : إناء من الخزف مستطيل مطلى بالقار ، أى الزفت .

(٤) العدل : نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير .

(٥) الخبثة : الخبيثة غير الطيبة .

(٦) جمع جعل ، وهو ضرب من الحشرات شبيه بالخنفساء .

(٧) جمع وزغ ، وهو سام أبرص .

وتتخطّاها ولا تلتفت لِفْتَها[١] . ورُبّما أشـكل الشيء على البعير فيمتحنه بالشَّمّة الواحدة ، فلا تَغلَط الإبل إلاّ في البِيش وحده ، ولا تغلط الخيلُ إلا في الدِّفْلَى وحده[٢].

والسنانير تموت عن أكل الأوزاغ والحيات والعقارب ، وما لا يُحصى عددُه من الحشرات . فهذا يدلُّ على جهلٍ بمصلحة المعاش ، وعلى حسّ غليظ ، وشرَهٍ شديد .

---

(١) أى لاتنظر إليها .

(٢) البيش والدفلى : ضربان من النبت سامان .

١١٠

أكل الهرة أولادها

قالوا: والهرةُ تأكل أولادها . فكفاك بهذه الخَصلة لؤماً وشَرَها وعقوقاً وغِلَظَ قَلْب!

وقال السيِّد الحِميرى — وذكر مسير عائشة رضى الله عنها إلى البَصْرة مع طَلْحَةَ والزُّبير، حين شهدتْ ما لم يشهدا، وأقدمت على ما نكصا عنه[١]:

جاءت مع الأشقَيْنَ فى هودجٍ   تُزجِى إلى البَصرة أجنادها[٢]

كأنَّها فى فِعلِها هِرّةٌ   تريد أن تأكل أولادَها

ولبئس ما قال فى أمّ المؤمنين وبنتِ الصِّدِّيق! وقد كان قادراً على أن يوفِّر على علىٍّ رضى الله عنه فضلَه، من غير أن يشتم الحواريِّين[٣] وأمّهات المؤمنين. ولو أراد الحقَّ لسارَ فيها وفى ذكرها سيرة علىّ بن أبى طالب، فلا هو جَمَّل عليًّا قُدوة، ولا هو رعى للنبى صلى الله عليه وسلم حُرمة.

وذكورة سنانير الجيران تأكل أولاد الهِرّة، ما دُمن صغاراً أو فوق الصِّغار شيئاً، وتقتُلها وتطلُبها أشدّ الطلب، والأمّهات تحرسُها منها. وتقاتل دونَها مع عَجْزها عن الذكورة.

---

(١) نكص عن الشىء: رجع.
(٢) تزجى: تسوق. الأجناد: الجند.
(٣) الحواريون: أنصار الأنبياء.

١١١

التجارة فى السنانير

قالوا : وللسنّور تجّار وباعــة ودلاّلون ، وناسٌ يُعرَفون بذلك . ولها راضَة (١) .

وقال السِّنْدى بن شاهَكَ : ما أعيانى أحـدٌ من أهل الأسواق من التُّجّار ، ومن الباعة والصُّنّاع ، كما أعيانى أصحـاب السنانير . يأخذون السنّور الذى يأكل الفِراخ والحمام ، ويُواثب أقفاص الفواخيت (٢) والوراشين والدّباسىّ والشّفانين (٣) ، ويُدخلونه فى دنٍّ ويشدون رأسَه (٤) ، ثم يُدحرجونه على الأرض حتّى يشغَلَه الدُّوَار ، ثم يُدخلونه فى قفصٍ فيه الفراخ والحمام ، فإذا رآه المشترِى رأى شيئاً عجبا ، وظن أنّه قد ظفر بحاجته ، فاذا مضى به إلى البيت مَضَى بشيطان ، فيجمع عليه بليَّتَين : إحداهما أكل طيوره وطيور الجيران ، والثانية أنه إذا ضَرِىَ عليها لم يأكلْ سواها .

ومررت يومــاً وأنا أريدُ منزلَ المكّىِّ بالأســاورة (٥) ، وإذا امرأةٌ

(١) راضة : جمع رائض ، كباعة وبائع ، وهو الذى يروض الدواب ويسوسها .
(٢) الفواخت : جمع فاختة ، وهو ضرب من الحمام المطوق .
(٣) كلها ضروب من الحمام .
(٤) أى رأس الدن .
(٥) موضع بالبصرة.

قد تعَلَّقَتْ برجلي وهي تقول : بيني و بينك صاحب المَسْلَحَة[١] ، فإنك دلَلتَنِي على سنّور وزعمتَ أنه لا يقرب الفراخ ، ولا يكشِف القدور ، ولا يدنو من الحيوان ، وزعمتَ أنك أبصرُ الناسَ بسنّور ، فأعطيتك على بصرك ودلالتك دانقا[٢] ، فلمَّا مضَيتُ به إلى البيت مضيتُ بشيطانٍ قد واللهِ أهلكَ الجيرانَ بعد أن فرغَ منّا . ونحن منذ خمسة أيام نحتال في أخذه ، وها هو ذا قد جئتُكَ به ، فرُدَّ عليَّ دانقِي وخُذْ ثمنَه من الذي باعَنِي[٣] ! ولا واللهِ إنْ تُبصِرُ من السنانير قليلاً ولا كثيراً !

قال الدلّال : انظروا بأيِّ شيء تستقيلُني[٤] ؟! ولا والله إنْ في ناحيتنا فتًى هو أبْصرُ بسِنّوْرٍ مني ، وذلك مِنْ مَنِّ سيدي ومولاي[٥] !

فقلت للدلال : ولا والله ، إنْ في هـذه الناحية فتًى هو أشكَرُ للهِ منك !

(١) المسلحة : القوم ذوو السلاح . عنى رئيس الشرطة .

(٢) الدانق : سدس الدرهم .

(٣) أي باعني إياه .

(٤) استقاله : طلب إليه أن يقيله ، أي يفسخ ما بينه وبينه .

(٥) أراد : منْ نعمة الله وفضله .

١١٢

أعاجيب العقرب

والعقرب تجعل في جوف فخار مشدود الرأس، مطيّن الجوانب، ثم يوضع الفخار في تنور، فإذا صارت العقربُ رماداً سُقِيَ مِنْ ذلك الرّماد مَن به الحصاة مقدار دانق[1].

وقال حنين: وقد يُسقى منه الدانقَ وأكثر، فيفتّت الحصاةَ من غير أنْ يضرّ بشيء من الأعضاء والأخلاط. وخير الدواء ما قصد إلى العضو السقيم وسلمت عليه الأعضاء الصحيحة.

وقال يحيى[2]: وقد تلسع أصحابَ ضروبٍ من الحمّيات العقاربُ فيُفيقون وتلسع الأفاعي فتموت. ومنها ما يلسع بعضُها بعضاً فيموتُ الملسوعُ، فهي من هذا الوجه تكفي الناس مؤونةً عظيمة. وتُلقى العقربُ في الدُّهن وتُترك فيه، حتّى يأخذ الدُّهن منها ويمتص ويجتذبَ قواها كلّها بعد الموت، فيكون ذلك الدهنُ يفرّق الأورام الغلاظ. وقد عَرَف ذلك حُنَين.

---

(١) الدانق: سدس الدرهم

(٢) يحيى بن خالد.

ومن أعاجيبها أنها لا تسبح ولا تتحرك إذا ألقيت فى الماء كيف كان الماء، ساكناً أو جارياً.

والعقرب تطلُب الإنسانَ وتقصِد نحوه، فإذا قصَد نحوها فرّت وهربت. وتقصِد أيضاً نحو الإنسان، فإذا ضربته هربَتْ هربَ من قد أساء، وتعلم أنها مطلوبة.

* * *

وريحُ العقارب إذا شُوِيتْ مثلُ ريح الجراد.

وما زلتُ أظنُّ أن الطَّعمَ أبداً يتبع الرائحة، حتَّى حقّقَ ذلك عندى بعضُ من يأكلها مشويّةً ونِيئةً[1]، أنّه ليس بينها وبين الجراد الأعرابىِّ السَّمين فرق.

وزعم لى بَخْتيشُوعُ بن جبريل: أنه قد عايَنَ الخَرْقَ الذى فى إبرة العقرب. وإن كان صادقاً كما قال فما فى الأرض أحدٌ بصراً منه. وإنّه لبعيد، وما هو بمستنكَر.

وفى العقارب أعجوبة أخرى؛ لأنه يقال إنها مائية الطباع، وإنها من ذوات الذرء[2] والإنسال وكثرة الولد، كما يعترى ذلك السَّمكَ والضبَّ والخنزيرة، فى كثرة الخنانيص[3].

---

(١) بكسر النون، أى غير ناضجة.

(٢) الذرء: النسل.

(٣) جمع خنوص، كسنور، وهو ولد الخنزير.

قال : ومع ذلك إن حَتْفَها[١] فى أولادها ، وإنّ أولادَها إذا بلَغْنَ وحان وقتُ الولادة ، أكلن جلدَ بطنها من داخل ، حتى إذا خرقْنَه خرجْنَ منه وماتت الأمّ .

* * *

وقد يطأ الإنسان على العقرب وهى ميّتة ، فتغترزُ إبرتُها فى رجله فيلقى الجهدَ الجاهد ، وربما أمرضَتْ ، وربّما قتلَتْ .

والعقارب القاتلة تسكون فى موضعين : بشَهْرَزُور وقرى الأهواز ، إلاّ أنّ القواتل التى بالأهواز جرّارات[٢] . ولم نذكر عقارب نَصيبِينَ[٣] لأن أصلها — فيما لا يشكّون فيه — من شهرزور ، حين حُوصِرَ أهلُها ورُموا بالمجانيق[٤] ، وبكيزانٍ محشوّة من عقارب شهرزور ، حتى توالدَت هناك ، فأعطَى القومُ بأيديهم .

* * *

قال : والعقارب تُستخرج من بيوتها بالجراد ، تُشدُّ الجرادة فى طرف عود

---

(١) الحتف : الهلاك .

(٢) الجرارات: عقارب صغار تجر أذنابها إذا مشت.

(٣) نصيبين : مدينة من بلاد الجزيرة.

(٤) جمع منجنيق ، وهى آلة من آلات الرمى بالحجارة والنفط ونحوها ، فى الحرب .

ثم تُدخَل الجحر ، فإذا عايَنَتْها تعلَّقَتْ بها ، فإذا أُخرِجَ العُودُ خرجت العقرب وهى متعلِّقة بالجرادة .

فأما إبراهيم بن هانئ فأخبرنى أنّه كان يُدخِل فى جُحرها خُوط كُرّاث[1] فلا يبقى منها عقربٌ إلا تَبِعته .

* * *

ومن العقارب طيّارات ، وجرّارات ، ومعقَّفاتٌ ، وخضرٌ ، وحُمر .

* * *

وللعقرب ثمانى أرجل . وهى حريصةٌ على أكل الجراد . وكذلك الحيات، وما أكثَرَ ما تلدغ وتنهش صاحبَ الجراد .

---

(١) الخوط ، بالضم : القضيب من النبات .

١١٣

العنكبوت

قال الله عزّ وجلّ : (مَثَلُ الذين اتَّخَذُوا مِن دُون اللهِ أولياء كَمَثَلِ العنكبوت اتخذتْ بيتاً وإنّ أوْهَنْ البيوت لَبيتُ العَنكَبوتِ لو كانوا يَعلَمون) .

ثم قال على إثر ذلك : (وتلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للنّاس وما يَعقِلُها إلاَّ العالِمُون) ، يريد ذِكرَه بالوَهَن . وكذلك هو . ولم يُرِدْ إحكام الصَّنعة فى الرِّقّة والصَّفاقة(١) ، واستواء الرُّقعة ، وطول البقاء ، إذا كان لايعمل فيه تعاوُر الأيام ، وسلِم من جنايات الأيدى .

* * *

قال : ومن أجناس العنكبوت جنسٌ ردىء التدبير ؛ لأنه ينسج ستره على وجه الأرض والصُّخور ، ويجعله على ظهر الأرض خارجاً ، وتكون الأطراف داخلة ، فإذا وقَعَ عليه شىء ممّا يغتذيه من شكل الذّبّان وما أشبهَ ذلك ، أخذَه .

---

(١) الصفاقة : الكثافة .

وأما الدَّقيق الصَّنعة فإنّه يصمِّد بيتهَ و يمدُّ الشعرةَ ناحية القرون والأوتاد، ثم يسدِّى من الوسط[١] ، ثم يهيِّئ اللُّحمة [٢] و يهيِّئ مِصيدتَه فى الوسط ، فإذا وقَعَ عليها ذبابٌ وتحرّكَ ما هناك ، ارتبط ونشِبَتْ به ، فيتركُه على حاله، حتّى إذا وثِق بوهْنه وضعفه ، غلّه[٣] وأدخله إلى خزانته . و إن كان جائعاً مصَّ من رطوبته ورمى به؛ فإذا فرغَ رمّ ما تشعَّثَ مِن نَسْجه .

وأكثر ما يقع على تلك المِصيدة من الصَّيد عند غيبوبة الشَّمس .

و إنما تنسِج الأنثى . فأمّا الذكر فإنّه ينقُض و يفسِد .

وولدُ العنكبوت أعجب من الفرّوج ، الذى يظهر إلى الدُّنيا كاسبا[٤] محتالاً مكتفيا .

قال : وولد العنكبوت يقوم على النسج ساعةَ يُولد !

قال : والذى ينسج به لا يخرُج من جوفه ، بل من خارج جَسَده . وقال الحُدّانىّ :

كأنَّ قفا هارونَ إذْ قام مدبراً قفا عنكبوتٍ سُلَّ من دُبْرها غَزلُ

---

(١) أى يصنع السداة ، وهى الخطوط الأساسية .

(٢) اللحمة : ما يداخل به بين خيوط السداة

(٣) غله : أوثقه وقيده .

(٤) أى يكسب قوته بنفسه .

فالنحل ، والعنكبوت ، ودودُ القزّ ، تختلف فى جهات ما يقال إنّه يخرجُ منها .

ومن العناكب جنسٌ يصيد الذُّبابَ صيدَ الفهود ، وهو الذى يسمّى « الليث » . وله ستٌّ عيون .. وإذا رأى الذبابَ لطئ بالأرض[(١)] ، وسكّن أطرافَه ، وإذا وثب لم يخطئ . وهو من آفات الذِّبّان ، ولا يَصيد إلاّ ذِبّانَ الناس .

* * *

والعناكب ضروب ، فمنها هذا الذى يقال له الليث .

ومنها أجناسٌ طِوالُ الأرجل ، والواحدة منها إذا مشَتْ على جلد الإنسان تبثَّر[(٢)] . ويقال إنّ العنكبوتَ الطويلةَ الأرجُل إنّما اتّخذت بيتاً وأعدّت فيه المصايد والحبائل ، والخيوطَ التى تلتفُّ على ما يدخل بيتَها من أصناف الذِّبّان وصغار الزّنابير ؛ لأنها حين علمتْ أنها لا بدّ لها من قُوت ، وعرَفتْ ضعفَ قوائمها ، وأنهما تَعْجِزُ عما يقوى عليه الليثُ ، احتالت بتلك الحِيَل .

ومنها جنسٌ ردىء ، مشنوء الصورة[(٣)] ، غليظُ الأرجل ، كثيراً ما يكون فى المكان التِّرب من الصّناديق والقماطر والأسفاط .

---

(١) لطئ بالأرض . لصق بها .
(٢) تبثر : ظهرت فيه بثور .
(٣) المشنوء : البغيض المكروه .

١١٤

النحـــل

والنَّحل تجتمع فتقسم الأعمالَ بينها ، فبعضُها يعمل الشمْع ، وبعضُها يعمل العسَل ، وبعضُها يبنى البيوت ، وبعضُها يستقى الماء ويصبُّه فى الثُقْب(١)، ويلطِّخه بالعسل .

ومنه ما يبكِّر إلى العمل . ومن النحل ما يكفِهُ(٢)، حتى إذا نهضَتْ واحدةٌ منها طارت كلُّها . يقال : « بَكَرَ بُكورَ اليعسوب » ، يريد أميرَ النحل ؛ لأنها تتبعه غُدوةً إلى عملها .

ومنها ما ينقُل العسل من أطراف الشجر ، ومنها ما ينقل الشَّمَع الذى تَبنِى به . فلا تزال فى عملها حتّى إذا كان الليلُ آبت إلى مآبها .

---

(١) الثقب ، بالضم : جمع ثقبة ، وتجمع أيضا على ثقب ، بفتح فضم .

(٢) يكفه : يجمعه .

١١٥

العسل

وإذا أُلقِيَ فى العسل اللحمُ الغريضُ(١) فاحتاج صاحبُه إليه بعد شهر أخرجَه طريًّا لم يتغيَّرْ .

وإذا قطَرَتْ منه قطرةٌ على وجه الأرض ، فان استدارَ كما يستدير الزئبقُ ولم يتفَشَّ(٢) ولم يختلط بالأرض والتُّراب ، فهو الصحيح . وأجودُه الذهبى .

ويزعُم أصحابُ الشَّراب أنهم لم يَرَوا شرابًا قطُّ ألذَّ ولا أحسنَ ولا أجمَع لما يريدون ، مِن شراب العسل الذى يُنْتَبَذُ بمصر ، وليس فى الأرض تُجّار شراب ولا غيرِ ذلك أيْسَر منهم .

وفيه أعجوبةٌ : وذلك أنّهم لا يعملونه إلاّ بماء النيل أكدرَ ما يكون . وكلَّما كان أكدر كان أصفَى ، وإن عمِلوه بالصافى فَسَد .

وقد يلقى العسل على الزبيب ، وعلى عصير الكَرْم فيجوِّدُهما .

وهو المثل فى الأمور المرتفعة ، فيقولون : ماء كأنه العسل . ويصفون كل شىء حلو فيقولون : كأنّه العسل ، ويقال هو معسول اللسان . وقال الشاعر :

لسانك معسولٌ ونفسُك شَحّةٌ ودون الثريّا من صديقك مالكا(٣)

---

(١) الغريض : الطرى .

(٢) التفشى : تمشى السائل وانتشاره . (٣) شحة : شحيحة بخيلة .

١١٦
الحبارى

وللحُبارَى خزانةٌ بين دُبُرِه وأمعائه ، له فيها أبداً سَلحٌ رقيقٌ لزِج ، فمتى ألحّ عليها الصَّقرُ ، وقد علمت أنّ سُلاحَها[1] من أجود سِلاحِها ، وأنَّها إذا ذرقَتْه بقى كالمكتوف ، أو المدبَّق المقيَّد[2]. فعند ذلك تجتمع الحبارَياتُ على الصقْر ، فينتفِن ريشه كلَّه طاقةً طاقة . وفى ذلك هلاكُ الصَّقر .

و إنما الحبارى فى سُلاحها كالظَّرابىّ[3] فى فسائها ، وكالثعلب فى سُلاحه وكالعقرب فى إبرتهـا ، والزُّنبور فى شعرته ، والثَّور فى قرنه ، والديك فى صيصيَتِه ، والأفعى فى نابها ، والعقاب فى كفِّها ، والتِّمساح فى ذنبه .

وكلُّ شىء معه سلاحٌ فهو أعـلَمُ بمكانه ، و إذا عـلم السلاحَ كان أبصرَ بوجوه الحرب ، كالأرنب فى إيثـارها للصَّعْداء[4] لقصر يديها ، وكاستعمال الأرانب للتوبير[5] والوطء على الزَّمَعـات ، واتخاذ اليرابيع

---

(١) السلاح ، بالضم : النجو والذرق .

(٢) المدبق : الذى ألزق بالدبق ، وهو حمل شجرة فى جوفه كالغراء يلزق بجناح الطائرة فيصاد به .

(٣) الظرابى : جمع ظربان ، وهى دابة منتنة .

(٤) الصعداء : الأرض يشتد صعودها على الراقى .

(٥) التوبير : الوطء على مآخير كفها .

القاصعاء ، والنافقاء ، والداماء ، والراهطاء[١] .

وقال الشاعر :

وهم تركوك أسلحَ من حُبارَى ... رأت صقراً وأشردَ من نعامِ

يريد : نعامة . وقال قيس بن زهير :

متى تتحزّمْ بالمناطق ظالماً ... لتجرى إلى شأوٍ بعيدٍ وتسبحِ[٢]

تكن كالحبارى إن أُصيبتْ فمثلُها ... أصيبَ وإنْ تُفلِتْ من الصقر تسلحِ

وقال ابن أبي فنن يصف ناساً من الكتّاب في قصيدةٍ له ذكر فيها خيانتهم :

رأوا مالَ الإمام لهم حلالاً ... وقالوا : الدينُ دينُ بنى صُهارَى

ولو كانوا يُحاسَبُهم أمينٌ ... لقد سَلَحوا كما سَلَح الحُبارَى

والخَرَب : ذكر الحبارى . والنَّهار : فرخ الحبارى . وفرخُها حارضٌ[٣] ساقطٌ لا خيرَ فيه .

---

(١) كلها أسماء لجحرة اليربوع .

(٢) المناطق : جمع منطقة ، وهي مايشد به الوسط . والشأو : الغاية والأمد .

(٣) الحارض : الضعيف البلية .

١١٧
الضفادع

وأنا ذاكرٌ من شأن الضِّفدِع من القول ما يحضر مثلى ، وهو قليلٌ فى جنب ما عند علمائنا ، والذى عند علمائنا لا يُحَسُّ فى جَنْبِ ما عند غيرهم من العلماء ، والذى عند العلماء قليل فى جنب ما عند الأنبياء ، والذى عند الأنبياء قليل فى جنب ما عند الله تباركَ وتعالى .

من ذلك : الضِّفدع لا يَصيحُ ولا يمكنُهُ الصياح حتى يُدخِلَ حنكَه الأسفل فى الماء ، فإذا صار فى فمه بعضُ الماء صاح ، ولذلك لاتسمع للضفادع نقيقاً إذا كن خارجاتٍ من الماء .

والضفادع من الحيوان الذى يعيش فى الماء ، ويبيض فى الشطِّ . مثل الرَّقّ (١) والسُّلَحفاة ، وأشباه ذلك .

والضفادع تنِقُّ فإذا أبصرت النارَ أمسكَت .

وفيها أعجوبة أخرى ، وذلك أنا نجد من كبارها وصغارها الذى لايُحصَى فى غِبِّ المطر (٢) إذا كان المطر دِيمةً (٣) ، ثم نجدها فى المواضع التى ليس بقُربها

---

(١) الرق ، بفتح الراء : العظيم من السلاحف المائية .

(٢) غب المطر ، أى بعده .

(٣) الديمة : المطر الدائم لاينقطع .

ولا نهر ، ولا حوض ولا غـــدير ، ولا وادٍ ولا بئر ؛ ونجدها في الصّحاصِح الأَمَاليس(١) وفوق ظهور مساجد الجماعة ، حتى زعمَ كثيرٌ من المتـكلّفين ومن أهل الجسارة ممن لا يحتفِلُ بسوء الحـال عند العلماء ، ولا يـكترثُ للشّكّ ، أنّها كانت في السحاب .

والضّفادع من الخلق الذي لا عظامَ له .

وتزعم الأعراب أن الضفدع كان ذا ذنَب ، وأن الضّبَّ سلبَه إيّاه. وذلك في خرافة من خُرافات الأعراب .

ويقول آخرون : إن الضّفْدِع إذا كان صغيرا كان ذا ذنَب ، فإذا خرجت له يدان أو رجلان سقط .

والأُسد تنتابها في الشرائع(٢) وفي مناقع الميـاه والآجام والغيَاض(٣) فتأكلها أكلاً شديدا ، وهي من الخلق المائيّ الذي يصـــبر عن الماء أياما صالحة .

والضفادع تعظُم ولا تَسْمَن ، كالدُّرّاج والأرانب . فإنّ سِمَنَهُما أن يحتملا اللحم .

وفي سواحل فارس ناسٌ يأْكلونها.

---

(١) الصحصح : جمع صحصاح ، وهو الأرض الجرداء المستوية . والأماليس : جمع إمليس ، وهي التي ليس بها شجر ولا كلأ ولا نبات ولا وحش .

(٢) جمع شريعة ، وهي مورد الماء .

(٣) الأجمة : الشجر الـكثير الملتف . والغيضة : مجتمع الشجر في الماء القليل .

١١٨

صيد طير الماء

وسألتُ بعضَ من اصطاد في يوم واحدٍ مائة طائر من طير المــــاء فقلت له : كيف تصنعون ؟ قال : إن هذا الذي تراه ليس من صَيْد يوم واحد ، و إن كلّه صِيدَ في ساعة واحدة . قلت له : وكيف ذاك ؟ قال : وذلك أنا نأتي مَناقع الماء ومواضعَ الطير ، فنأخذ قَرْعةً يابسة صحيحةً فنرمي بها في ذلك الماء ، فإذا أبصرها الطير تدنو منه بِدَفْع الرِّيح لها في جهته مرّةً أو مرتين فزع ، فاذا كَثُر ذلك عليه أنِسَ ، وإنما ذلك الطير طير الماء والسَّمك[١] فهي أبداً على وجه المــاء . فلا تزال الرِّيحُ تقرِّبها وتباعدها ، وتزداد هي بها أُنْساً ، حتى ربّما سقط الطائرُ عليها ، والقرعــة في ذلك إمّا واقفة في مــكان ، وإما ذاهبة وجائية ، فاذا لم نَرَها تنفر منها أخذْنا قرعةً أخرى ، أو أخذناها بعينها وقطعنا موضع الإبريق منها[٢] وخرقنا فيها موضع عينين ، ثم أخذَها أحدُنا فأدخل رأسَه فيها ثم دخل الماء ، ومَشَى فيه إليها مشياً رُوَيداً

(١) أي طير السمك ، الذي يغتذي بالسمك .

(٢) أراد به طرفها الدقيق .

فكلّما دنا من طائرٍ قبضَ على رجليه ثم غمسه فى الماء ودقّ جناحَه وخلاّه ؛ فبقيَ طافياً فوق الماء يَسْبَح برجليه ولا يُطيق الطيَران ، وسائرُ الطير لايُنكر انغماسَه .

ولا يزال كذلك حتى يأتيَ على آخر الطَّير . فاذا لم يَبقَ منها شىء رمَى بالقَرعة عن رأسه ؛ ثم نلقُطها ونجمعها ونحملها .

١١٩

أقوال فيما يضر من الأشياء

وروى الأصمعيّ وأبو الحسن ، عن بعض المشايخ قال : ثلاثة أشياء ربّما صَرَعتِ أهلَ البيت عن آخرهم : أكل الجراد ، ولحـــوم الإبل ، والفُطر من الكمأة[1] .

وقال غيرهما : شرب الماء فى الليل يورث الخبَل ، والنَّظَر إلى المحتضَر يورث ضعفَ القلب ، والاطّلاع فى الآبار العاديّة ينقض التركيب[2] ، ويسوِّل مصارعَ السُّوء .

فأمّا الفُطْر الذى يُخلَق فى ظلّ شجر الزيتون فإنما هو حتفٌ قاضٍ ، وسمٌّ ناقع .

وكلُّ شيء يُخلق تحت ظلال الشجَر يكون رديئا ، وأردؤه شجر الزيتون ، وربّما قتَل ، وإن كان مما اجتنوه من أوساط الصحارى .

قالوا : ومما يقتلُ الحمّامُ على المِلأة[3] ، والجماع على البطنة ، والإكثار من القديد اليابس[4] .

---

(١) الفطر : جنس من الكمأة أبيض عظام .

(٢) العادية : القديمة ، كأنها منسوبة إلى عاد . ينقض : يفسد .

(٣) الملأة : الامتلاء .

(٤) القديد : ماقطع من اللحم وشرر ، أى بسط فى الشمس ، واللحم المملوح المجفف فى الشمس

وقال الآخر : شُرب الماء البارد على الظمأ الشديد إذا عجَّل الكرْع ، وعظَّم الجرعَ ، ولم يقطع النفس ، يَقتُل .

قالوا : وثلاثٌ تورث الهُزال : شرب الماء على الرِّيق ، والنوم على غير وطاء[١] ، وكثرة الكلام برفع الصَّوت .

وقالوا : وأربعة أشياء تُسرع إلى العقل بالإفساد : الإكثار من البصَلِ ، والباقلَّى[٢] ، والجماعِ ، والخُمار[٣] .

وقال أبو إسحاق : ثلاثة أشياء تُخلِق العقلَ وتُفسِد الذِّهن : طول النَّظَر في المرآة ، والاستغرابُ في الضَّحك ، ودوام النظَر إلى البَحْر .

وقال معمَّر[٤] : قُطِعت[٥] في ثلاثة مجالسَ ، لم أجد لذلك علَّةً إلاّ أنّي أكثرت في أحد تلك الأيّام من أكل الباذنجان ، وفي اليوم الآخَر من أكل الزَّيتون ، وفي اليوم الثالث من الباقلَّى .

---

(١) الوطاء ، بالكسر : خلاف الغطاء .

(٢) الباقلى : الفول .

(٣) الخمار ، بالضم ، أصله صداع الخمر وأذاها .

(٤) معمر بن عباد السلمى ، صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة .

(٥) يقال قطعه قطعا : بكته بالحجة فانقطعت حجته .

١٢٠
القول فى القطا

تقول العرب : « أصدَقُ من قطاة » و « أهدَى من قَطاة » !

وفى القطا أعجوبةٌ ، وذلك لأنها لاتضع بيضُها أبداً إلاّ أفراداً ، ولا يكون بيضها أزواجا أبداً . وقال أبو وَجْزَة :

وهن يَنْسِبْنَ وهْناً كلَّ صادقةٍ ... باتت تُباشِرُ عُرماً غيرَ أزواجِ [١]

والعُرم التى عَنَى : بيضُ القطا ؛ لأنها منقَّطة . وقال الأخطل :

شفَى النفس قتلى من سُليمٍ وعامرٍ ... ولم يَشْفِها قتلَى غنيٍّ ولا جَسْرِ [٢]
ولا جُشَمٍ شرِّ القبائـــل إنّهم ... كبيض القطا ، ليسوا بسُودٍ ولا حُمْرِ

وقال مَعْقِل بن خُوَيلد :

أبا مَعْقِلٍ لا تُوطِئَنْكُمْ بَغَاضَتِى ... رءوسَ الأفاعى فى مَراصِدها العُرمِ [٣]

يريد : الأفاعى العُرم فى مراصدها . وهى منقَّطة الظهور .

---

(١) ينسبن : أى يصحن بأسمائهن ، وهو صوتهن : قطا قطا .

(٢) غنى وجسر ، بفتح الجيم : قبيلتان .

(٣) البغاضة : البغض .

وما أكثر ما تبيض العقاب ثلاثَ بيضات ، إلا أنّها لا تُلحِم ثلاثةً[(١)]،
بل تُخرِج منهن واحدة .

وربّما باضت الحمامة ثلاث بيضات ، إلاّ أنّ واحدةً تَفْسُد لا محالة .

* * *

ويشبّه مشيُ المرأة إذا كانت سمينةً غيرَ خرّاجةٍ طوّافة ، بمشي القطاة في القَرمَطة والدّلّ[(٢)] . وقال ابن ميادة :

إذا الطِّوالُ سَدَونَ المشيَ في خَطَلٍ　　قامت تُريك قواماً غيرَ ذي أَوَدِ[(٣)]
تَمشِي كَكُدرِيّةٍ في الجوِّ فاردةٍ　　تَهدِي سُروبَ قطاً يَشرَبْنَ بالثَّمَدِ[(٤)]

وقال جِرانُ العَود :

فلمّا رأينَ الصُّبحَ بادرنَ ضوءه　　رسيمَ قطا البطحاء أو هُنّ أقطَفُ[(٥)]

---

(١) ألحمه : أطعمه اللحم . ثلاثة ، أي من فراخها .

(٢) القرمطة : تقارب الخطو . والدل: السكينة والوقار وحسن السيرة .

(٣) السدو : التذرع في المشي واتساع الخطو . والخطل التلوى والتبختر . والأود : العوج

(٤) الكدرى : ضربٌ من القطا ، قصار الأذناب ، غبر الألوان ، رقش الظهور . فاردة : منقطعة عن أخواتها ، وذلك لسرعتها . سروب : جمع سرب . والثمد : الماء القليل . يشربن به ، أي منه ، وفي الكتاب : « عينا يشرب بها عباد الله » .

(٥) ضمير بادرن للنسوة . والرسيم : ضرب من السير سريع مؤثر في الأرض . أقطف ، أي أكثر قطفا. والقطف : تقارب الخطو .

وقال الكميت :

يمشين مَشْىَ قَطَا البُطَاحِ تأوُّداً	قُبُّ البُطُونِ رواجحَ الأكفالِ (١)

وقال الآخر فى غير هذا المعنى :

كأنَّ القلب ليلةَ قيلَ يُغْدَى	بليلى العامريةِ أو يُرَاحُ
قطاةٌ غرَّها شَرَكٌ فباتت	تُجاذبُه وقد عَلِق الجَناحُ (٢)

وقال آخر (٣) :

وكنَّا كزوجٍ من قطاً بمفازةٍ	لدى خَفْضِ عيش مُونقٍ مُورِقٍ رغدِ
فخانهما ريبُ الزَّمانِ فأفردا	ولم تَرَ عينى قَطُّ أقبحَ من فِردِ

وفى صدق القطاة يقول الشاعر :

وصادقةٍ ما خبَّرتْ قد بعثتُها	طُروقاً وباقى الليل فى الأرض مُسْدِفُ (٤)
ولو تُرِكَتْ نامت ، ولكن أعشَّها	أذًى من قِلاصٍ (٥) كالحَنِيِّ المعطفِ

وتقول العرب : « لو تُرِكَ القطا ليلاً لنامَ » .

---

(١) البطاح ، بالضم : موضع . قب : جمع قباء ، وهى الضامرة الدقيقة الخصر .

(٢) ويروى : « عزها شرك » ، أى غلبها .

(٣) هو أبو دلامة الشاعر العباسى .

(٤) طروقا : ليلا . مسدف : مظلم .

(٥) قلاص : جمع قلوص ، وهى الفتية من الابل . الحنى : جمع حنية ، وهى القوس .

ويقال : أعششْتُ القومَ إعشاشاً ، إذا نزلتَ بهم وهم كارهونَ لك فتحوَّلوا عن منزلهم .

وقال الكميت :

لا تكذِبُ القولَ إن قالت قَطاً صدقَتْ
إذ كلُّ ذي نسبةٍ لا بد ينتحِلِ

وقال مُزاحم العُقَيليّ في تجاوب القطاة وفرخها :

فنادت وناداها وما اعوجَّ صدرُها بمثل الذى قالت له لم يبـدِّلِ

١٢١

الوحشي والأهلي من الحيوان

وسنقول في الأجناس التي يكون في الجنس منها الوحشيُّ والأهلي ، كالفيلة ، والخنازير ، والبقر ، والحمير ، والسنانير .

والظِّباء قد تَدجُن وتُوَلَّد ، على صعوبة فيها . وليس في أجناس الإبل جنسٌ وحشيٌّ إلاّ في قول الأعراب .

ومما يكون أهليًّا ولا يكون وحشيًّا ، وهو سَبُع ، الكلاب . وليس يتوحش منها إلاّ الكلب الكَلِب . فأما الضباع والذئاب ، والأُسْد ، والنُّمور ، والبُبور ، والثعالب ، وبناتُ آوَى ، فوحشيةٌ كلها .

وقد يقلِم الأسد[1] وتُنزَع أنيابُه ، ويطول ثَواؤه[2] مع الناس حتَّى يَهرَمَ في ذلك ، ويحسَّ بعجزه عن الصَّيد ، ثم في ذلك لا يُؤْتَمن عُرامه[3] ولا شروره ، إذا انفردَ عن سُوّاسِه . وأبصر غيضةً قُدّامَها صحراء .

* * *

---

(١) أي تقطع أظافره .

(٢) الثواء : الإقامة .

(٣) عرامه : شدته وحدته .

وليس يصير السبعُ من هذه الأجناس، أو الوحشيُّ من البهائم، أهليًّا بالمقام فيهم، وهو لا يقدر على الصحارى، وإنما يصير أهليًّا إذا تَرَكَ منازل الوحش وهى له مُعْرِضة.

وقد تتسافَد وتتوالد فى الدُّور وهى بعدُ وحشية، وليس ذلك فيها بعامّ.

ومن الوحش ما إذا صار إلى الناس وفى دورهم ترك السِّفاد، ومنها مالا يَطعَم البتّة بوجه من الوجوه، ومنهاما يُكرَهُ على الطُّعم(١) ويُدخل فى حَلْقه كالحية، ومنها ما لا يَسفَد ولا يدجُن، ولا يَطعم ولا يَشرب ولا يصيح حتّى يموت. وهذا المعنى فى وحشيِّ الطيرِ أكثرُ.

والذى يُحكى عن السُّورانى القَنّاص الجبلى، ليس بناقضٍ لما قُلنا، لأنّ الشىء الغريب، والنادرَ الخارجىّ، لا يُقاس عليه. وقد زعموا أنه بلغ من حِذقه بتدريب الجوارح وتضريتها أنّه ضرَّى ذئباً حتى اصطاد به الظباء وما دونها، صيداً ذريعاً، وأنّه ألِفَه حتى رجَع إليه من ثلاثين فرسخا وقد كان بعضُ العمال سَرَقه منه. وقد ذكروا أنّ هذا الذئب قد صار إلى العسكر. وأن هذا السورانىّ ضرَّى أسداً حتى اصطاد له الحمير فما دونها صيداً ذريعاً. وأنّه ضرى الزنابير فاصطاد بها الذِّبّان.

وكلُّ هذا عَجَب، وهو غريبٌ نادر، بديعٌ خارجىّ

(١) الطعم، بالضم: الطعام.

١٢٢

الضب

ومن كَيْس الضبّ أنه لا يتّخذ جُحره إلاّ في كُدْية — وهو للوضع الصلب — أو في ارتفاعٍ عن المسيل والبسيط ، ولذلك توجد براثنُه ناقصةً كليلة ، لأنه يَحفر في الصَّـلابة ، ويعمِّق الحَفْر . ولذلك قال خالد ابن الطَّيفان :

ومولًى كمولى الزبرقان دملتُه   كما دُملتْ ساقٌ تُهاضُ بها كسرُ (١)
إذا ما أحالت والجبائر فوقَهـا   مَضَى الحولُ لا بُرءٌ مُبِينٌ ولا جَبْرُ (٢)
تراه كأن الله يجدع أنفَـــه   وأذنيه إنْ مولاه ثابَ له وَفْرُ (٣)
ترى الشرّ قد أفنى دوابرَ وجهه   كضبّ الكُدَى أفنَى براثنَه الحفرُ (٤)

* * *

ولمّا علم أنه نسّاءٌ سَيّئُ الهداية ، لم يَحفِر وِجارَه إلاّ عند أكَمةٍ أو صخرةٍ

---

(١) دمله : أصلحه . تهاض : تكسر بعد الجبور .
(٢) أحالت : مضى عليها الحول .
(٣) ثاب : عاد ورجع . والوفر : المال والمتاع الكثير الوافر .
(٤) الدوابر : الأصول . ويروى : « دوائر » .

أو شجرة ؛ ليكون متى تباعَـدَ مِن جُحره لطلب الطُّعم ، أو لبعض الخوف ، فالتفتَ ورآهُ ، أحسَن الهداية إلى جُحْره . ولأنَه إذا لم يُقِم عَـلماً فلعلّه أن يلِـجَ على ظَرِبان أو وَرَل ، فلا يكون دون أكله له شيء . فقالت العرب : « خبٌ ضبٌ » و : « أخبُّ من ضبّ » و : « أخدع من ضبّ » و : « كلُّ ضبٍّ عند مِرْداته[1] » .

وإذا خَدَع فى زوايا حفيرته فقد توثّقَ لنفسه .

* * *

وقال ثلاثة أشياء لا يتمّ لها التدبير إذا دخلت الأسراب والأنفاق ، والمكامن والتوالج[2] ، حتى يغصّ بها الخرق[3] .

فمن ذلك أن الظَّرِبان إذا أراد أن يأكل حِسْلَة الضب[4] ، أو الضبّ نفسه ، اقتحم جُحرَ الضبّ مستَدْبِراً ، ثم التمسَ أضيقَ موضعٍ فيـه ، فإذا وجده قد غصّ به ، وأيقَنَ أنه قد حال بينه وبين النسيم ، فَسا عليه ، فليس يجاوز ثلاث فَسَواتٍ حتى يُغْشى على الضبّ ، فيأكله كيف شاء .

---

(١) المرداة : الصخرة يرى بها ، والعلم الذى ينصبه عند جحره .

(٢) التوالج : جمع تولج ، وهو كناس الظبى أو الوحش ، الذى يلج فيه .

(٣) يغص بها : يضيق .

(٤) الحسلة : جمع حسل ، ولد الضب .

والآخر : الرجلُ إذا دخلَ وِجارَ الضبُع ومعه حبل ، فإنْ لم يَسُدَّ بيدنه وثوبه جميع المخَارق والمنافذ ، ثمّ وصلَ إلى الضبع من الضِّياء بمقدار سَمِّ الإبْرة ، وثبتْ عليه فقطّعتْه ، ولو كان أشد من الأسد .

والثالث : أن الضبّ إذا أراد أن يأكل حُسُوله وقفَ لهـا من جُحرها فى أضيق موضعٍ من منفَذِه إلى خارج ، فإذا أحكم ذلك بدأ فأكلَ منها ، فإذا امتلأ جوفُه انحطّ عن ذلك المكان شيئاً قليلا ، فلا يُفلِتُ منه شىء من ولده إلاّ بعد أن يشبعَ ويزولَ عن موضعه فيجد منفذاً .

١٢٣

جملة القول فى نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب

أوّلُ ذلك طُول الذَّماء ، وهو بقيّة النَّفْس وشدّة انعقاد الحياة والرُّوحِ بعد الذَّبح وهَشْم الرأس ، والطعن الجائف النافذ[1] ، حتّى يكون فى ذلك أعجبَ من الخنزير ، ومن الكلب ، ومن الخنفساء . وهذه الأشياء التى تفردتْ بطُول الذَّماء .

ثمّ شارك الضبُّ الوزغةَ والحيّة ؛ فإن الحيّةَ تُقطَع من ثلث جسمها فتعيش إن سلمت من الذَّرّ[2] .

فجمع الضبُّ الخصلتين جميعا . إلا ما رأيتُ فى دَخّال الأذُن[3] من هذه الخصلة الواحدة ؛ فإنى كنت أقطعه بنصفين ، فيمضى أحد نصفيه يمنةً ، والآخر يَسرةً ، إلاّ أنى لا أعرف مقدار بقائهما بعد أن فاتا بَصَرِى .

ومن أعاجيبه طولُ العمر . وذلك مشهورٌ فى الأشعار والأخبار ، ومضروبٌ به المثل .

---

(١) الجائف : الذى يبلغ الجوف .

(٢) الذر : صغار النمل .

(٣) دخال الأذن : دويبة ذات قوائم كثيرة ، يسميها العامة فى مصر « أم أربعة وأربعين » . انظر الحيوان ٤ : ١٥٣ .

١٢٤
ما يوصف بالكبر من الحيوان

والضبُّ يوصف بشدة الكبر ، ولا سيما إذا أخصب وأمن . فإذا أمِن وخلا له جوُّه وأخصبَ نفخَ وكشَّ نحو كلِّ شيء يريده .

ومما يوصف بالكبر الثَّورُ في حال تشرُّقه ، وفي حال مِشيته الخُيَلاء في الرياض ، عند غِبِّ دِيمةٍ[١] . ولذلك قال الكميت :

كشَبُوبٍ ذي كبرياء من الوَحْـ ـدةِ لايبتغي عليها ظهيرا[٢]

وهذا كثير ، وسيقع في موقعه في القول في البقر .

ومما يوصف بالكبر الجملُ الفحل ، إذا أطافَتْ به نُوق الهَجْمة[٣] ، ومرَّ نحو ماء أو كلأ فتبِعْنَه . وقال الراجز :

فإن نَشردْن حوالَيْه وقَفْ قالِبَ حِملاقَيْهِ في مثل الجُرُف[٤]
لو رُضَّ لحد عينه لما طَرَفْ[٥] كبراً وإعجاباً وعزًّا وتَرَفْ

---

(١) الديمة ، بالكسر : مطر أيام لايقلع .
(٢) الشبوب : الشاب من الثيران ، أو المسن .
(٣) الهجمة ، بالفتح : القطعة الضخمة من الإبل بين الثلاثين والمائة .
(٤) الحملاق : بياض العين . والجرف : ماتجرفته السيول وأكلته من الأرض .
(٥) الرض : الكسر والدق .

والناقة يشتدُّ كبرُها إذا لقحت ، وتزمُّ بأنفها ، وتنفرد عن صَحَاباتها[1] .

* * *

والمذكورون من الناس بالكبر ثم من قريشٍ بنو مخزومٍ وبنو أمية ، ومن العرب بنو جعفر بن كلاب ، وبنو زرارة بن عُدُس خاصّة .

فأمّا الأكاسرة من الفرس فكانوا لا يعدُّون الناسَ إلاّ عبيداً ، وأنفسَهم إلا أربابا .

ولسنا نُخبر إلاّ عَنْ دهماء الناس وجمهورهم كيف كانوا ، من ملوك وسُوقَة .

والكبر فى الأجناس الذليلة من الناس أرسَخُ وأعمّ ، ولكن القلةَ والذّلةَ مانعتانِ من ظهور كِبْرهم ، فصار لا يعرف ذلك إلاّ أهل المعرفة ، كعبيدنا من السِّند ، وذمّتنا من اليهود .

والجملةُ أنّ كلَّ مَنْ قَدَر من السِّفلة والوضَعاء والمحقَّرين أدنى قدرة ، ظَهَر مِنْ كِبره على مَن تحت قدرته ، على مراتب القدرة ، مالا خفاء به

---

(١) الصحابات : جمع صحابة . والصحابة : الأصحاب .

فإن كان ذِمّيًّا[١] وحَسُن بِمالَهُ في صـــدور الناس ، تَزَيَّدَ في ذلك ، واستظهرَتْ طبيعته بما يظنُّ أنَّ فيه رقع ذلك الخَرْق، وحِياص[٢] ذلك الفَتْق ، وسدَّ تلك الثُّلمة .

فتفقَّدْ ما أقول لك فإنّك ستجده فاشيا .

وعلى هذا الحساب من هذه الجهة ، صار المملوك أسوأ ملَكَةً[٣] من الحرّ .

وشيء قد قتلتُهُ علما ، وهو أنّي لم أرَ ذا كِبْرٍ قطُّ على مَن دونه إلا وهو يذلُّ لمن فوقَه بمقدار ذلك ووزنه !

فأما بنو مخزومٍ و بنو أمية ، و بنو جعفر بن كلاب و بنو زرارة بن عدس ، فأبطَرَهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة ، ولو كان في قوى عقولهم ودياناتهم فضل[٤] على قُوَى دواعي الحَمِيّة فيهم ، لـكانوا كبني هاشم في تواضعهم ، وفي إنصافهم لمن دونهم .

---

(١) الذمي : الرجل المعاهد يؤدي الجزية ، من الـكتابيين أو غيرهم .
(٢) الحياص ، المعروف فيه الحياصة ، وهي الخياطة .
(٣) الملـكة ، بالـكسر ، وبالتحريك : الملك . وفي الحديث : « لايدخل الجنة سيء الملـكة » ، أي الذي يسيء صحبة المماليك .
(٤) الفضل : الزيادة .

١٢٥

أسماء لعب الأعراب

البُقَّيرَى ، وعُظَيمُ وضَّاحٍ ، والخَطْرةُ ، والدارَةُ ، والشَّحمة ، والحلق ، ولُعبة الضَّبِّ .

فالبقَّيرَى : أن يجمع يديه على التُّراب فى الأرض إلى أسفله ، ثم يقول لصاحبه : اشتهِ فى نفسك ، فيصيب ويخطىء .

وعظيم وَضَّاحٍ : أن يأخذ بالليل عظماً أبيض ، ثم يَرمِى به واحدٌ من الفريقين ، فإن وجدهَ واحدٌ من الفريقين ركبَ أصحابه الفريقَ الآخرَ من الموضع الذى يجدونه فيه إلى الموضع الذى رَمَوا به منه .

والخَطْرة : أن يعملوا مخراقا[1] ، ثم يرمى به واحدٌ منهم من خلفهِ إلى الفريق الآخر ؛ فإن عجزوا عن أخذه رمَوا به إليهم ، فانْ أخذوهُ ركبوهم .

والدارة ، هى التى يقال لها الخَرَاج[2] .

والشحمة : أن يمضى واحدٌ من أحد الفريقين بغلام فيتنحون ناحية ، ثم يقبلون ويستقبلهم الآخَرون ، فانْ منَعوا الغلامَ حتى يصيروا إلى الموضع

---

(١) المخراق: منديل يلف ليضرب به . وهو يسمى فى عامية مصر « الطرة » .

(٢) هو أن يمسك أحدهم شيئاً بيده ، ويقول لسائرهم : أخرجوا مافى يدى .

الآخر فقد غلبوهم عليه ، ويُدفَع الغلام إليهم . وإن هم لم يمنعوه ركبوهم
وهذا كلُّه يكون فى ليالى الصَّيف ، عن غِبِّ ربيع مُخْصِب .

ولُعبة الضب : أن يصوِّروا الضبَّ فى الأرض ، ثم يحوِّل واحدٌ من الفريقين وجهَه ، ثم يضع بعضُهم يدَه على شىء من الضب ، فيقول الذى يحوِّل وجهه : أنف الضب ، أو عين الضب ، أو ذنَب الضب ، أو كذا وكذا من الضب ، على الوِلاء[1] حتّى يفرُغ . فإن أخطأ ما وضع على يده رُكِب ورُكب أصحابه . وإن أصابَ حوَّلَ وجهَه الذى كان وضع يدَه على الضب ، ثم يصير هو السائل .

(١) الولاء ، بالكسر : المتابعة .

١٢٦
ما يزعمون أنه من عمل الجن

وأهل تَدمُر[١] يزعمون أن ذلك البناء قبل زمن سليمان عليه السلام بأكثرَ مما بيننا اليوم و بين سليمان بن داود عليهما السلام . قالوا : ولكنكم إذا رأيتم بنياناً عجيباً ، وجهلتم موضعَ الحيلةِ فيه ، أضفتموه إلى الجنّ ، ولم تُعانوه بالفكر .

وقال العَرْجيّ :

سدت مَسامعها لقَرع مَراجلٍ　　من نَسج جِنٍّ مثله لا يُنسَجُ[٢]

وقال الأصمعي : السيوف المأثورة هي التي يقال إنّها من عمل الجن والشياطين لسليمان بن داود عليهما السلام . فأما القوارير والحمّامات فذلك مالا شكّ فيه . وقال البعيث :

بَنَى زيادٌ لذكرِ الله مَصنعةً　　من الحجارة لم تُعمَل من الطّين[٣]
كأنّها ، غيرَ أنّ الإنسَ تَرفعُها　　مما بنت لسليمانَ الشياطينُ

(١) تدمر : مدينة بالشام .
(٢) المراجل : جمع مرجل ، وهي القدر من النحاس . وأراد بالنسج الصنع .
(٣) المصنعة : مايصنعه الناس من الآبار والأبنية والقصور .

وقال الأعشى فى المعنى الأوّل ، من بناء الشياطين لسليمان بن داود عليهما السلام :

أرى عاديا لم يمنع الموتَ ربَّهُ   ووَردٌ بتيماء اليهوديِّ أبلقُ[(١)]
بناه سليمانُ بن داودَ حِقْبةً   له جندلٌ صُمٌّ وطىٌّ موثَّقُ[(٢)]

---

(١) عاديا : جد السموءل بن غريض بن عاديا اليهودى ، وإليه ينسب بناء حصن تيماء . ربه ، أى لم يمنعه الموت ربه . الورد : الأحمر التى تضرب حمرته إلى صفرة حسنة ، عنى به الحصن. وإنما قيل له الأبلق لأنه كان فى بنائه بياض وحمرة .

(٢) الجندل : الحجارة . الموثق : المحكم .

١٢٧
زواج الأعراب للجن

ومن قول الأعراب أنهم يظهرون لهم ، ويكلّمونهم ويناكحونهم . ولذلك قال شمر بن الحارث الضّبّيّ :

ونارٍ قد حضأتُ بُعَيدَ وهنٍ بدارٍ لا أريدُ بها مُقاما[1]
سِوَى تحليلِ راحلةٍ وعَينٍ أكالئُها مخافـــةَ أن تناما[2]
أتوا نارى فقلت مَنُون قالوا سَرَاةُ الجنِّ قلت عِمُوا ظلاما[3]
فقلت إلى الطعام فقال منهم زعيمٌ : نَحسُدُ الإنْسَ الطعاما

وذكر أبو زيد عنهم ، أنّ رجلاً منهم تزوّجَ السِّعلاة ، وأنها كانت عنده زمانا ، وولدت منه ، حتى رأت ذات ليلةٍ برقاً على بلاد السِّعالى ، فطارت إليهنّ ، فقال:

رأى برقاً فأوضَعَ فَوقَ بكرٍ فلا بِكِ ما أسالَ وما أغاما[4]

---

(١) حضأت : أشعلت . الهده : أن تهدأ الرجل والليل .
(٢) أى أقمت بها بقدر تحلة اليمين ، أى تحليلها . أكالئها : أراقبها .
(٣) منون أنتم : من أنتم . عموا ظلاما ، أى انعموا ظلاما ، وهو تحية المساء .
(٤) أوضع : سار الإيضاع ، وهو ضرب من السير . والبكر ، بالفتح : الفتى من الإبل . بك ، أى بحقك . ماأسال ، أى لم يسل البرق الماء . وما أغام : لم يحدث غيما ، أى سحابا .

فمن هذا النِّتاج المشتَرك ، وهذا الخَلْق المركّب عندهم ، بنو السِّعلاة ، من بني عمرو بن يربوع ، و بلقيس ملكة سبأ .

وتأولوا قول الشاعر :

لاهُمَّ إنَّ جُرهُماً عبادُكا الناس طِرفٌ وهُمُ تلادُكا[1]

فزعموا أنَّ أبا جُرهُم من الملائكة الذين كانوا إذا عَصَوا في السماء أُنزِلوا إلى الأرض ، كما قيل في هاروت وماروت .

(١) الطرف ، بالكسر : أصله المستحدث من المال . عنى أنهم مستحدثون . والتلاد : القديم ، وأصله ماورثه عن الآباء قديما .

١٢٨
رؤية الجن

قال الأعراب : وربما نزلنا بجمع كثيرٍ ، ورأينا خياماً وقباباً ، وناساً ، ثم فقدناهم من ساعتنا .

والعوامُّ تروى أنّ ابنَ مسعود ، رضى الله عنه ، رأى رجالاً من الزُّطّ[1]، فقال : « هؤلاء أشبه من رأيت بالجنّ ليلةَ الجنّ » .

قال : وقد رُوِى عنه خلافُ ذلك .

* * *

ومما يدلُّ على ما قلنا قولُ أبى النَّجم ، حيث يقول :

* بحيثُ تَستنُّ مع الجنّ الغُول[2] *

فأخرجَ الغولَ من الجنّ ، للذى بانتْ به من الجنّ . وهكذا عادتهم أن يخرجوا الشيء من الجملة بعد أن دخل ذلك الشيء فى الجملة ، فيُظْهر لأمرٍ خاصّ .

---

(١) الزط : جيل من الهند .

(٢) استن فى عدوه : مضى على وجهه .

وفى بعض الرِّواية أنَّهم كانوا يَسمعون فى الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة ، وأن خالد بن الوليد حين هدم العُزَّى(١) رمَتْه بالشَّرر ، حتى احترق عامَّةُ فخذِهِ ، حتى عادهُ (٢) النبى صلى الله عليه وسلم .

* * *

وكانوا يقولون ، إذا ألف الجنىّ إنساناً وتعطّف عليه ، وخـبَّره ببعض الأخبار ، ووجد حِسَّه ورأى خياله ، فإذا كان عندهم كذلك قالوا : مع فلانٍ رئىٌ من الجن(٣) .

وممن يقولون ذلك فيه : عمرو بن لُحَىّ بن قَمَعَة ، والمأمور الحارثىّ ، وعتيبةَ بن الحارث بن شهاب ، فى ناسٍ معروفين من ذوى الأقدار ، من بين فارسٍ رئيس ، وسيِّدٍ مطاع .

* * *

وقد كان مُسَيلمةُ يدّعى أنّ معه رئياً فى أوّل زمانه ، ولذلك قال الشاعر حين وصف مخاريقَه وخُدَعه (٤) :

---

(١) العزى : صنم كان لهم ببطن نخلة هدمه خالد بن الوليد سنة ثمان من الهجرة . وكانت العزى ثلاث سمرات .

(٢) من عيادة المريض فى مرضه .

(٣) الرئى : مايتراءى للانسان من الجن .

(٤) المخاريق : يعنى بها الأمور الخارقة للعادة .

ببيضة قارور وراية شادنٍ وخُلَّة جنيٍّ وتوصيل طائرِ (١)

ألاَ تراه ذَكَر خُلَّةَ الجنّيّ ؟!

ويقولون : ومن الجنِّ جنسٌ صورةُ الواحدِ منهم على نصف صورة الإنسان ، واسمه شِقٌّ ، وإنّه كثيراً ما يَعرِضُ للرجُل المسافرِ إذا كان وحدَه ، فربّما أهلكَه فزَعاً ، وربّما أهلكه ضرباً وقتلا .

قالوا : فمن ذلك حديث علقمةَ بن صفوان بن أمية بن محرّث الكنانى ، جدِّ مروان بن الحكم : خرج فى الجاهلية وهو يريد مالاً له بمكّةَ ، وهو على حمار وعليه ازارٌ ورداء ، ومعه مِقرعةٌ ، فى ليلةٍ إضحِيانةٍ (٢) ، حتى انتهى الى موضعٍ يقال له حائط حزْمان ، فإذا هو بشِقٍّ ، له يد ورجل وعين ، ومعه سيفٌ ، وهو يقول :

عَلقَمُ إنّى مقتولْ وإنّ لحمى مأكولْ
أضربُهم بالهُذْلولْ (٣) ضرب غلامٍ شُملولْ (٤)
رحب الذراع بُهلولْ (٥)

---

(١) كان مسيلمة يدخل البيضة فى قارورة ضيقة الرأس ثم يخرجها بحيلة خاصة . والشادن : الظبى قوى جسمه وترعرع . وكان مسيلمة ينزع ريش الطائر فلا يستطيع الطيران ، ثم يخلو بالطائر ويغرز له ريشاً فى موضع الريش المنزوع فيطير به .

(٢) إضحيانة : مضيئة لاغيم فيها .

(٣) الهذلول ، عنى به سيفه .

(٤) الشملول : الخفيف السريع .

(٥) أى ياشق هذه الأرض .

فقال علقمة :

ياشِقَّها مالى ولك اغمِدَ عنّى مُنصُلَكَ (١)

تقتل من لا يقتلُكْ

فقال شقّ :

عبيتُ لك عَبيتُ لك كيما أتيـح مَقتَلَكْ

فاصبرْ لمـا قد حُمَّ لك (٢)

قال : فضربَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ، فخرّا ميتيْن.

فمن قتلت الجن علقمة بن صفوان هذا ، وحربُ بن أميّة . قالوا : وقالت الجنّ :

وقبر حربٍ بمكان قفْرْ وليس قربَ قبرِ حربٍ قبرْ

قالوا : ومن الدليل على ذلك ، وعلى أن هذين البيتين من أشعار الجن أن أحداً لا يستطيع أن ينشدهما ثلاث مرّات متّصلة ، لا يتتعتع فيها ، وهو يستطيع أن ينشدَ أثقل شعرٍ فى الأرض وأشقّـه عشرَ مرّاتٍ ولا يتتعتع .

قال : وقتلت مرداس بن أبى عامر ، أبا عباس بن مرداس

(١) اغمد ، أراد اغمدن بالنون الخفيفة ، فحذفها للشعر . والمنصل : السيف .

(٢) أى قدر لك .

وقتلت الغريضَ(١) خنقا بعد أن غنَّى بالغناء الذى كانوا نَهوْه عنه .

وقتلت الجنُّ سعدَ بن عُبادةَ بن دُليم ، وسمعوا الهاتفَ يقول :

قد قتلنا سيد الخزرَ ... جِ سعدَ بن عُباده
ورميناه بسَهمين ... فلم نُخْطِ فؤادَه(٢)

واستهوَوْا سنانَ بن أبى حارثة ليستفحلوه فماتَ فيهم ، واستهوَوا طالب أبى طالبٍ فلم يوجَد له أثر .

واستهووا عمرو بن عدىّ اللخمىّ الملك ، الذى يقال فيه : « شبَّ عمرو عن الطَّوق » . ثم ردُّوه على خاله جذيمةَ بنِ الأبرش بعد سنينَ وسنين .

واستهووا عُمارة بن الوليد بن المغـــيرة ، ونفخوا فى إحليله فصار مع الوحش .

---

(١) الغريض لقب له ، واسمه عبد الملك ، وكان من الموالى وكان خياطاً فأخذ الغناء عن ابن سريج ، وكان بعض موليات ابن سريج تعلمه النياحة فبرز فيها . ويروون أن الجن نهته أن يغنى فى لحنه :

وما أنس مل أشياء لا أنس شادنا ... بمكة مكحولا أسيلا مدامعه

لأنه فتن طائفة منهم فانتقلوا عن مكة من أجل حسنه .

(٢) أى لم يخطىء فؤاده . وفى هذا البيت وسابقه ما يسمى الخزم ، وهو زيادة فى أول البيت .

ويروون عن عبد الله بن فائد بإسنادٍ له يرفعه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خُرافة رجلٌ من عذرة استهوته الشياطين » . وأنّه تحدّث يوما بحديثٍ فقالت امرأةٌ من نسائه : هذا من حديث خرافة ! قال : « لا ، وخرافةُ حقٌّ » .

١٢٩

تعليل ما يتخيله الأعراب

من عزيف الجن وتغول الغيلان

وكان أبو إسحاق[١] يقول فى الذى تذكر الأعرابُ من عزيف الجنّان وتغوّل الغيلان : أصل هذا الأمر وابتداؤه ، أنّ القومَ لمّا نزلوا بلاد الوحش عَمِلت فيهم الوحشة . ومن انفردَ وطال مُقامُه فى البلاد والخلاء والبعد من الإنس ــ استوحش ، ولا سيّما مع قلة الأشغال والمذاكرين .

والوحدة لاتقطع أيامهم إلاّ بالمنى أو بالتفكير ، والفكر ربّما كان من أسباب الوسوسة . وقد ابتُلِىَ بذلك غيرُ حاسب ، كأبى يس ، ومثّى ولد القُنافر .

وخبّرنى الأعمش أنه فكّر فى مسألة ، فأنكر أهلُه عقله ، حتّى حَمَوه وداوَوه .

وقد عرَض ذلك لكثير من الهند .

وإذا استوحش الإنسانُ تمثّلَ له الشىء الصغير فى صورة الكبير ،

(١) هو إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .

وارتابَ ، وتفرّقَ ذهنُهُ ، وانتقضت أخلاطُه ، فرأى ما لا يُرى ، وسمِع ما لا يُسمَع ، وتوهّم على الشيء اليسير الحقير ، أنّه عظيمٌ جليل .

ثمّ جعلوا ما تصوّر لهم من ذالك شعراً تناشدوه ، وأحاديثَ توارثوها ، فازدادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشئ ، وربِّي به الطِّفل ، فصار أحدُهم حينَ يتوسَّطُ الفيافي ، وتشتمل عليه الغِيطانُ في الليالي الحنادس [1] ، فعند أوّل وحشةٍ وفزعةٍ ، وعند صياحِ بُومٍ ومُجاوبةِ صدًى [2] ، وقد رأى كلّ باطل ، وتوهّمَ كلّ زور ، وربّما كان في أصل الخلق والطبيعة كذّاباً نفّاجاً [3] ، وصاحبَ تشنيع وتهويل ، فيقول في ذلك من الشعر على حسَبِ هذه الصِّفة ، فعند ذلك يقول : رأيتُ الغيلان ! وكلّمت السِّعلاة ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : قتلتها ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : رافقتها ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : تزوّجتها !

قال عُبَيدُ بن أيوب :

فلِلّهِ درُّ الغول أيُّ رفيقةٍ ... لصاحب قفرٍ خائفٍ متقتِّرِ [4]

---

(١) الحنادس : جمع حندس ، وهى الشديدة الظلمة .

(٢) الصدى : رجع الصوت .

(٣) النفاج : الذى يفخر بما ليس عنده .

(٤) المتقتر : المتنحى عن الناس .

وقال :

أهذا خليلُ الغولِ والذئبِ والذى ... يَهِيم بَرَبَّاتِ الحجال الهراكل[1] .

وقال :

أخو قَفَرَاتٍ حالفَ الجنَّ وانتفى ... من الإنس حتّى قد تقضَّت وسائلُهْ

له نسبُ الإنسيِّ يُعرف نَجْلُه ... وللجنِّ منه خَلْقُه وشمائلُهْ

وممّا زادهم فى هذا الباب ، وأغراهُم به، ومدّ لهم فيه ، أنَّهم ليس يلقَون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلاّ أعرابيًّا مثلَهم ، وإلاّ عامّيًّا لم يأخذ نفسه قطُّ بتمييز ما يستوجب التكذيبَ والتصديق ، أوالشكَّ ، ولم يسلكْ سبيلَ التوقُّف والتثبُّت فى هذه الأجناس قطُّ . وإمّا أن يلقَوْا راويَةَ شعرٍ أو صاحب خبر . فالراوية كلَّما كان الأعرابىُّ أكذبَ فى شِعره كان أطرفَ عندَه ، وصارت روايتُه أغلبَ ، ومضاحيكُ حديثه أكثر . فلذلك صار بعضُهم يدَّعى رؤية الغُول ، أو قتلَها أو مرافقتَها ، أو تزويجَها ؛ وآخر يزعم أنّه رافق فى مفازةٍ نمراً فكان يطاعمه ويؤاكله . فمن هؤلاء خاصّة القتّالُ الكلابى ؛ فإنه الذى يقول :

أيُرسِلُ مروانُ الأميرُ رسالةً ... لِآتيَهُ إنّى إذاً لمضلَّلُ

---

(١) جمع هركلة ، وهى الحسنة الجسم أو العظيمة الوركين .

وما بيَ عصيانٌ ولا بُعدُ منزلٍ ... ولكنّني من خوف مروان أوجلُ

وفي باحةِ العنقاء أو في عَمايةٍ ... أو الأُدَمى من رهبة الموت موئل (١)

ولي صاحبٌ في الغار هَدّكَ صاحباً ... أبو الجَونِ إلاّ أنّه لا يعلّلُ (٢)

إذا ما التقينا كان جُلّ حديثنا ... صُماتٌ وطرف كالمعابل أطحل (٣)

تضمّنتِ الأرْوَى لنا بطعامنا ... كلانا له منها نصيبٌ ومأكلُ (٤)

فأغلبُه في صنعةِ الزاد إنّني ... أُميطُ الأذى عنه ولا يتأمّل (٥)

وكانت لنا قَلْتٌ بأرضٍ مَضَلّةٍ ... شريعتُنا لأيِّنا جاء أوّلُ (٦)

كلانا عدوٌّ لو يرى في عدوّه ... مَحزّاً وكلٌّ في العداوة مُجمِل (٧)

---

(١) الباحة : الساحة . العنقاء وما بعدها : مواضع . الموئل : الملجأ .

(٢) هدك صاحباً ، أي كفاك صاحباً . وأبو الجون : كنية النمر .

(٣) الصمات ، بالضم : الصمت . المعابل : جمع معبلة ، وهو النصل الطويل العريض .
الأطحل : ما لونه الطحلة ، وهو لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل .

(٤) الأروى : اسم جمع للأروية ، وهي أنثى الوعول .

(٥) أميط : أزيل .

(٦) القلت : النقرة في الجبل تمسك الماء . مضلة : يضل فيها ولا يهتدى للطريق .

(٧) المجمل : المتئد المعتدل لا يفرط .

١٣٠
أرزاق الحيوان

ومن العجب فى قسمة الأرزاق أن الذئبَ يصيد الثعلبَ فيأكله ، ويصيدُ الثعلبُ القنفذَ فيأكلها ، ويُريغُ القنفذ الأفعى فيأكلها .⁽¹⁾ وكذلك صنيعه فى الحيّات مالم تَعظُم الحيةُ . والحيّةُ تصيد العصفورَ فتأكله ، والعصفور يصيد الجرادَ فيأكله ، والجراد يلتمس فراخَ الزنابير وكلّ شيء يكون أفحوصُه على المستوِى . والزُّنبور يصيد النحلةَ فيأكلها ، والنَّحلةُ تصيد الذبابة فتأكلها ، والذبابة تصيد البعوضةَ فتأكلها .

---

(١) أراغها : طلبها وارادها .

١٣١

الأرانب

والأرنب قصير اليدين ، فلذلك يخفّ عليه الصَّعْداء[١] والتوقل في الجبال .

وعرَف أنّ ذلك سهلٌ عليه ، فصرَف بعضَ حِيَلِه إلى ذلك عند إرهاق الكلابِ إيّاه . ولذلك يُعجَبون بكلّ كلبٍ قصير اليدين ، لأنه إذا كان كذلك كان أجدر أن يلحقها .

وفي الأرانب من العجب أنّها تحيض ، وأنها لاتسمَن ، وأنّ قضيبَ الخُزَز[٢] ربّما كان من عَظْم ، على صورة قضيبِ الثعلب .

* * *

ومن أعاجيبها أنّها تنام مفتوحة العين ، فربّما جاء الأعرابيُّ حتى يأخذَ هامن تلقاء وجهها ، ثقةً منه بأنّها لا تُبْصِر .

وكانت العرب في الجاهلية تقول : مَن عُلِّق عليه كعب أرنب لم تُصبْه عينٌ ولا نفسٌ ولا سِحر ، وكان عليه واقية ؛ لأن الجنّ تهرُب منها ، وليست من مطاياها؛ لمكان الحيض .

---

(١) أراد الأرض ذات الصعداء ، وهي التي يشتد صعودها على الراقي .

(٢) الخزز : ذكر الأرانب .

١٣٢

الحرباء

والحرباء دويبّة أعظم من العظاء ، أغبرُ ما كان فرخاً ، ثم يصفرّ وإنما حياته الحرّ . فتراهُ أبداً إذا بدت جَوْنةُ — يعنى الشمس — قد لجأ بظهره إلى جُذَيلٍ[١] ، فإن رمضت الأرضُ ارتفعَ .

ثم هو يقلّب بوجهه أبداً مع الشمس حيث دارت حتى تغرُب ، إلا أن يخافَ شيئاً . ثمّ تراه شابحاً بيديه[٢] ، كما رأيتَ من المصلوب . وكلّما حميتْ عليه الشمسُ رأيت جلده قد يخضرُّ . وقد ذكره ذو الرمة بذلك فقال :

يظلُّ بها الحرباء للشمسِ ماثلاً على الجذل إلاّ أنّه لا يكبّرُ
إذا حوّل الظلّ العشىُّ رأيته حنيفاً وفى قَرن الضُّحى يتنصّرُ[٣]
غداً أصفر الأعلى وراحَ كأنه من الضِّحِّ واستقباله الشمسَ أخضرُ[٤]

---

(١) مصغر جذله ، وهو ما عظم من أصول الشجر المقطع .

(٢) شبح بيديه : مدهما .

(٣) حنيفاً ، أى مسلماً . أى إنه عند ميل الشمس إلى الغروب يتجه نحوها إلى الغرب حيث قبلة المسلمين لأهل المشرق . وهو فى قرن الضحى أى أوله يتجه إلى المشرق حيث تتجه النصارى فى صلاتها .

(٤) الضح : ضوء الشمس على الأرض.

وكذا الجمل يستقبل بهامته الشمسَ ، إلا أنه لا يدور معها كيف دارت كما يفعل الحِرباء .

وشقائق النُّعمان والخِيرِىُّ يصنع ذلك ويتفتّح بالنّهار وينضمّ بالليل . والنِّيلُوفَر الذى ينبت فى الماء يغيب الليلَ كلَّه ويظهر بالنهار .

والسمكُ الذى يقال له الـكَوسج فى جوفه شحمةٌ طيّبة ، وهم يسمُّونها الـكَبِد ، فإن اصطادوا هذه السمكةَ ليلاً وجدوا هذه الشحمةَ فيها وافرةً ، وإن اصطادوها نهاراً لم توجَد .

وقد ذكر الحُطَيئةُ دورانَ النباتِ مع الشمس حيث يقول :

بمستأسِدِ القُريان حوٍّ تلاعُه فنُوّارُه مِيلٌ إلى الشَّمس زاهرُه[١]

وقال ذو الرمة :

إذا جَعَل الحِرباء يغبرُّ لونُه ويخضرُّ من لفح الهجير غباغبُه[٢]
ويَشبَح بالـكفَّين شبحاً كأنه أخو فَجْرةٍ عَالَى به الجذعَ صالبُه[٣]

وقال آخر :

كأنَّ يَدَىْ حِربائها متشمِّساً يَدَا مُجرِمٍ يستغفر اللهَ تائبِ

---

(١) استأسد النبت : طال . الحو : جمع أحوى ، وهو الأسود إلى الخضرة . والنوار : جمع نوارة وهى الزهرة ميل : جمع مائل . والزاهر : المشرق الحسن .

(٢) الغباغب : جمع غبغب ، وهو اللحم المتدلى تحت الحنك .

(٣) يشبح : يمد . يقول : كأنه رجل فجر فرفعه صالبه فوق الجذع .

١٣٣

الخلد

والخُلْد دويبَّة عمياء صَمّاء ، لاتعرفُ ما يدنو منها إلاّ بالشمّ ، تخرج من جُحرها ، وهى تعلم أن لاسمعَ ولابصَرَ لها ، وإنما تَشْحَا فاها [1] وتقف على باب جُحرها ، فيجىء الذبابُ فيسقُطُ على شِدقها ، ويمرُّ بينَ لَحيَيها ، فتسدُّ فمها عليه وتستدخلها بجذبة النفَس ، تعلم أنّ ذلك هو رزقُها وقَسْمُها [2] ، فهى تَعرِض لها نهاراً دون الليل ، وفى الساعات من النَّهار التى يكون فيها الذُّبابُ أكثرَ ، لاتفرِّط فى الطَّلَب ولا تقصِّر فى الطَّلَب ، ولاتخطئُ الوقتَ ، ولاتغلَط فى المقدار .

وللخُلْد أيضاً ترابٌ حول جُحره ، هو الذى أخرجَه من الجُحر ، يزعمون أنه يصلح لصاحب النِّقرِس [3] ، إذا بُلَّ بالماء وطُلِيَ به ذلك المكان.

---

(١) شحافاه يشحوه ويشحاه : فتحه .

(٢) القسم : النصيب وما قسم للمرء .

(٣) النقرس : ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

١٣٤

بعض العجائب

وفى الناس مَن يحرِّك أذنيه من بين سائر جَسده ، وربما حرَّك إحداهما قبل الأخرى . ومنهم من يحرِّك شعرَ رأسه ، كما أنَّ منهم من يبكى إذا شاء ، ويضحك إذا شاء .

وخبَّرنى بعضهم أنه رأى مَنْ يبكى بإحدى عينيه ، وبالتى يقترحها عليه الغَير .

وحكى المكِّى عن جَوارٍ باليمن ، لهنَّ قرونٌ مضفورة من شعر رءوسهنَّ ، وأنَّ إحداهنَّ تلعب وترقص على إيقاعٍ موزون ، ثم تُشْخِص قرناً من تلك القرون ، ثم تلعب وترقص ، ثم تُشْخِص[1] من تلك الضفائر المرصَّعة واحدةً بعد أخرى حتى تنتصبَ كأنها قرونٌ أوابدُ[2] فى رأسها .

---

(١) تشخص : ترفع .

(٢) أوابد : منفردات ، وأصل الأوابد الوحش .

فقلت له : فلعلَّ التضفير والترصيع أن يكون شديدَ الفتل ببعض الغِسْل[1] والتلبيد ، فإذا أخرجتْه بالحركة التى تثبتها فى أصل تلك الضفيرة شخصَتْ .

فلم أره ذَهَب إلى ذلك ، ورأيته يحقّقه و يستشهد بأخيه .

---

(١) الغسل : ما كانوا يغسلون به الرأس من خطمى وطين وأشنان .

١٣٥

نوم الذئب

وتزعم الأعرابُ أن الذئب ينامُ بإحدى عينيه ، ويزعمون أنّ ذلك من حاقّ الحذر[1] ، وينشد شعر حميد بن ثَور الهلالىّ ؛ وهو قوله :

ينام بإحدى مُقْلَتَيْه ويتّقى الـ ... منايا بأُخرى فهو يقظانُ هاجعُ

وأنا أظنُّ هذا الحديث فى معنى ما مدح به تأبّط شراً :

إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزلْ ... له كالئ من قلب شَيحانَ فاتكِ[2]

ويجعل عينَيه ربيئةَ قلبه ... إلى سَلّة من حدّ أخضرَ باتكِ[3]

---

(١) حاق الحذر : شدته .

(٢) الكالئ : الحافظ . الشيحان : الجاد فى كل أمر .

(٣) الربيئة : الرقيب . السلة : المرة من سل السيف . جعل السيف أخضر لصفائه . الباتك : القاطع .

١٣٦

ماورد فى كليلة ودمنة

من الأمثال فى شأن الفيل

وممّا قرأه الناسُ من الأمثال فى شأن الفيل ، التى وجدوها فى كتاب كليلة ودمنة .

فمن ذلك قوله : «أفلا ترى أنّ الكلبَ يبصبص بذنبه مراراً حتّى تُلقى له الكِسرة . وإن الفيل المُغتلِمَ لَيعرفُ قوّته وفضلَه ، فإذا قُدِّم إليه علفُه مكرّماً لم يأكلْ حتى يُمسَحَ ويتملّق » .

قال : « وقيل فى أعمالٍ ثلاثة لا يستطيعها أحدٌ إلاّ بمعونةٍ من ارتفاع همّةٍ وعظيمِ خطَر . منها عملُ السلطان ، وتجارةُ البحر ، ومناجَزة العدوّ .
وقالت العلماء فى الرجل الفاضل إنّه لا ينبغى أن يُرَى إلاّ فى مكانين ولايليق به غيرُهما : إمّا مع الملوك مكرّما ، وإما مع النُّسّاك متبتّلا[1] ، كالفيل إنّما بهاؤه فى مكانين ، إما فى بَرّيّة متوحّشا ، وإما مَركباً للملوك » .

---

(١) المتبتل : المنقطع الى الله للعبادة .

قال : « وقد قيل فى أشياء ثلاثة فضلُ مابينها متفاوت : فضل المقاتل على المقاتل ، وفضل الفيل على الفيل ، وفضل العالم على العالم » .

وقال فى كلامٍ آخر : « فإن لم تنجح الحيلةُ فهو إذاً القدرُ الذى لا يُدفع ؛ فإنّ القدر هو الذى يسلُب الأسدَ قوّته حتّى يدُخله التابوت[1] ، وهو الذى يحمل الرجلَ الضعيفَ على ظهر الفيل المغتلم ، وهو الذى يسلِّط الحوّاء على الحيّة ذات الحُمَة فينزع حُمَتَها ويلعب بها » .

وقال: « ومن لم يرضَ من الدُّنيا بالكَفَاف الذى يُغْنيه وطمَحت عيناه إلى مافوق ذلك ، ولم ينظُر إلى مايتخوّف أمامه ، كان مثلُه مثل الذباب الذى ليس يرضى بالشجرَ والرَّياحين حتّى يطلبَ الماء الذى يسيل من أذُن الفيل المغتلم[2] ، فيضربه بأذنه فيهلِك » .

---

(١) التابوت : الصندوق .

(٢) المغتلم : الذى قد غلبته الشهوة فاهتاج لذلك .

١٣٧

خرطوم الفيل

ولو لم يكن من أعاجيب الفيل إلاَّ خرطومه الذى هو أنفهُ وهو يدُه[(١)]، وبه يوصل الطعامَ والشرابَ إلى جوفه ، وهو شىء بين الغُضروف واللحم والعصب ، وبه يقاتل ويضرب ، ومنه يصيح . وليس صياحُه فى مقدار جِرم بَدَنِه ، ويضرب به الأرضَ ويرفعه فى السّماء ، ويصرِّفه كيف شاء . وهو مقتلٌ من مَقاتله .

والهند تربط فى طرفه سيفا شديد المَتْن[(٢)] فيقاتل به ، مع ما فى ذلك من التهويل على مَن عايَنَه .

---

(١) أى لو لم يكن إلا هذا لـكفى .
(٢) المتن : الظاهر .

١٣٨
الكركدن

قال : والذى يثبت الكركدنَ أن داود النبىّ صلى الله عليه وسلم ذكره فى الزَّبور حينَ سمّاه .

وقد ذكره صاحب المنطق[١] فى كتاب الحيوان ، إلا أنّه سمّاه بالحمار الهندى ، وجَعَل له قرناً واحداً فى وسط جبهته . وكذلك أجمع عليه أهلُ الهند كبيرُهم وصغيرهم . وإنّما صار الشكُّ يَعرِض فى أمره من قِبَل أنّ الأنثى منها تكون نَزُوراً[٢] . وأيام حملها ليست بأقلّ من أيام حمل الفِيلَة[٣] ، فلذلك قلّ عددُ هذا الجنس .

وتزعم الهندُ أن الكركدنَ إذا كانت ببلادٍ لم يَرعَ شىءٌ من الحيوان شيئاً من أكناف تلك البلاد ، حتى يكون بينه وبينها مائةُ فرسخ من جميع جهات الأرض ، هيبةً له وخضوعاً له ، وهرباً منه .

---

(١) هو أرسطو .

(٢) النزور : القليلة الولد .

(٣) روى الجاحظ أن مدة حمل الفيلة سبع سنوات .

وقد قالوا في ولدها وهو في بطنها قولاً لولا أنه ظاهرٌ على ألسنة الهند ، لـكان أكثر الناسِ ، بل كثيرٌ من العلماء ، يُدخلونه في باب الخـــرافة.

وذاك أنهم يزعمون أنَّ أيامَ حَملها إذا كادت أن تتم ، وإذا نضجت وشحنت ، وجَرى وقتُ الولادة ، فربّما أخرج الولد رأسَه من ظَبيتها[(١)] ، فأكلَ من أطراف الشجر ، فإذا شبِع أدخل رأسَه ، حتّى إذا تمّت أيامُه وضاق به مكانُه وأنـكرته الرّحِم ، وضَعَتْه مُطيقاً قويًّا على الـكَسْب والحضْر[(٢)] ، والدفع عن نفسه ، بل لا يَعـرِض له شيءٌ من الحيوان والسباع .

وقد زعم صاحبُ المنطق أنَّ ولد الفيل يَخرُج من بطن أمّه نابتَ الأسنان الطول لُبثه في بطنها.

وهذا جـائز في ولد الفيل غير منـكَر ، لأنَّ جماعةَ نسـاء معروفاتُ الآباء والأبناء ، قد ولدن أولادهن ولهم أسنان ثابتة ، كالذى روَوْا في شأن مالك بن أنس ، ومحمدبن عَجْلانَ وغيرهما .

---

(١) أى فرجها .

(٢) الحضر ، بالضم : ارتفاع العدو .

وقد زعم ناسٌ من أهل البصرة أنّ خاقان بن عبد الله بن الأهتم استوفى فى بطن أمه ثلاثة عشر شهرا . وقد مُدِح بذلك وهُجى .

وليس هذا بالمستنكَر ، وإن كنتُ لم أرَ قطُّ قابلةً تقرُّ بشىء من هذا الباب ، وكذلك الأطبّاء . وقد روَوه كما علمت . ولكنّ العجبَ كلَّ العجب ما ذكروا من إخراج ولد الكركدّن رأسَه واعتلافه ، ثم إدخاله رأسَه بعد الشِّبَع والبِطنة . ولا بدّ — أكرمَك الله — إذا أكل من نَجْوٍ، فإن كان بقى ذاك الولد يأكل ولا يروث ، فهذا عَجَب ، وإن كان يَرُوث فى جوفها فهذا أعجب !

* * *

والعوامُّ تضرب المثلَ فى الشدّة والقوّة بالكركدّن ، وتزعُم أنه ربّما نَطَحَ الفيل فرفَعه بقرنه الواتد(١) فى وسط جبهته ، فلا يشعر بمكانه ولا يحسُّ به حتى ينقطع على الأيام .

وهذا القول بالخرافة أشبه .

* * *

---

(١) الواتد : الثابت المنتصب .

وأما قرن السكر كدّن فخبرني مَن رآه ممن أثق بعقله ، وأسكن إلى خبره ، أنَّ غلظَ أصله وسعة جسمه يكون نحواً من شبرين .

وليس طوله على قدر ثخَنه ، وهو محدَّد الرأس ، شديد الملاسة ، ملموم الأجزاء مُدمَج[1] ، ذو لُدونة وعُلوكة[2] في صلابة ، لا يتقسم عليه شيء .

(١) المدمج : المستحكم .
(٢) العلوكة : المتانة في شيء من اللين .

١٣٩
مبارزة الجاموس للأسد

وأمّا الجاموس والأسد فخبّرنى محمد بن عبد الملك أنّ أمير المؤمنين المعتصم بالله ، أبرز للأسد جاموسين فغَلَباه ، ثم أبرز له جاموسةً ومعها ولدُها فغلبَتْه وحمَتْ ولدَها منه وحصّنته ، ثمّ أبرز له جاموساً وحدَه فواثَبَه ثم أدبرَ عنه .

هذا وفى طبع الأسد الجُرأةُ عليه ، لأنه يعُد الجاموسَ من طعامه ، والجاموس يعرفُ نفسَه بذلك ، فمع الأسد من الجرأة عليه بحسب ذلك ، ومع الجاموس من الخوف على قدر ذلك . وفى معرفة الأسد أنّ له فى فمه من السلاح ماليس لشىء سواه ، وفى معرفة الجاموس بعد ذلك السلاح منه ، فمعه من الجرأة عليه بمقدار مامع الجاموس من التهيُّب له . فيعلم أنه قد أعطى فى كفّه ومخالبه من السلاح ما ليس لشىء سواه . ويعلم الأسد والجاموس جميعاً أنه ليس فى فم الجاموس ويده وظِلفه من السلاح قليلٌ ولا كثير ، فمع الأسد من الجرأة عليه ، ومع الجاموس من الخوف منه على حَسَب ذلك .

ويعلم الأسدُ أن بدنه يموجُ فى إهابه(١) ، وأن له من القوّة على الوثوب

(١) الإهاب : الجلد .

والضبْرُ[١] والحضْر ، والطلَب والهرب ، ماليس فى الجـــاموس ، بل ليس ذلك عند الفهد فى وثوبه ، ولا عند السِّمْع[٢] فى سرعـــة مَرِّه ، ولا عند الأرنب فى صَعْداء ولا هَبوط[٣] ، ولا يبلغه نَقَزان[٤] الظَّبى إذا جَمع جراميزه[٥] ، ولا ركضُ الخيلِ العِتاقِ إذا أُجيدَ إضمارُها .

والجاموس يعرف كلَّ ذلك منه ، ومع الجاموس من النُّكوص عنه بقدر ما مع الأسد من الإقدام عليه ، ويعلم أنه ليس له إلاّ قرنه ، وأن قرنَه ليس فى حدّة قرون بقر الوحش ، فضلاً عن حدّة أطراف مخالب الأسد وأنيابه ، وأن قرنه مبتذَلٌ لا يُصان عن شيء ، ومخالب الأسد فى أكمامٍ وصُوَان[٦] .

وإذا قوى الجاموس مع هذه الأسباب المجبنة ، على الأسد مع تلك الأسباب المشجِّعة ، حتّى يقتلَه أو يعرِّد عنه[٧] ، كان قد تقدّمَه تقدُّماً فاحشاً ، وقد علاهُ علوًّا ظاهراً .

---

(١) الضبر : الوثب مع جمع القوائم .
(٢) السمع ، بالكسر : ولد الذئب من الضبع .
(٣) الصعداء : الأرض المرتفعة . والهبوط : المنحدرة .
(٤) النقزان : الوثب .
(٥) الجراميز : قوائم الوحشى .
(٦) الصوان ، بالضم والكسر : مايصان به الشيء .
(٧) التعريد : الإحجام والنكول والفرار .

والجاموس أجزعُ خلقِ الله من عضّ جرجسة[١] و بعوضة ، وأشدُّه هرباً منهما إلى الماء . وهو يمشى إلى الأسَد رخىّ البال ، رابط الجأش ، ثابت الجَنان[٢] .

* * *

وليس للجاموس فى أظلافه وفى يديه ورجليه وفى فمه سلاح ، فقد دلَّت الحال على أنّ مَدارَ الأمر إنَّما هو فى شجاعة القلب .

وفى هذا القيـــاس أنّ الصَّقر إنما يواثب الـكركىّ لمـكان سلاحِه دونَ شجاعة القلب التى يقوى بها الضعيف ، وبخـــلافها يضعُف القوىّ .

وسأقرِّب ذلك عندك ببعض ما تعرفه . لا نشكّ أنّ الهرّ أقوى من الهرة فى كل الحالات ، حتّى إذا سفِدها فحدثت بينهما بغضاء ومطالبة ، حدثت للهرة شجاعة وللهر ضعف ، فصارت الهرةُ فى هذه الحال أقوى منه ، وصار الهرّ أضعف . ولولا أنه يُمعن فى الهرب غايةَ الإمعان ثم لحقتْه ، لقطّعته وهو مُسْتَخْذٍ .

---

(١) الجرجس : صغار البعوض.

(٢) الجنان ، كسحابه : القلب .

والرجُـــل الشديد الأسْر [١] قد يَفْزع فتنحلُّ قواه ، ويسترخى عصبُه ، حتّى يضربَه الصبىّ . والذئب القـوىّ من ذئاب الخَمَرِ [٢] يكون معه الذئبُ الضعيف من ذئاب البرارى ، فيصيبُ القوىَّ خدْشٌ يسير ، فحين يشمُّ ذلك الذئبِ الضعيفُ رائحةَ الدم وثبَ عليه .

فيعترى ذلك القوىّ عند ذلك من الضعف بمقدار ما يعترى الضعيفَ من القوّة ، حتى يأكلَه كيف شاء .

والأسد الذى يعتريه الضَّعف فى الماء الغَمْر حتّى يركبَ ظهرَه الصبىُّ ثم يقبضَ على أذنيه فيغـطّه [٣] كيف شاء .

وقد يفعل ذلك غلمان السّوادِ [٤] وشاطىء الفرات ، إذا احتملت المُدود [٥] الأُسْـدَ لا تملك من أنفُسها شيئا . وهو مع ذلك يشدُّ على العسكر حتّى يَفرِقَه فرقَ الشَّعر ، ويطويَه طىّ السجِلّ ، ويهارش النمر عامّةَ يومِه لا يقتُل أحدهما صاحبه . وإن كان الجمل الهائج باركاً

---

(١) الأسر : شدة الخلق والخلق .

(٢) الخمر ، بالتحريك : ما واراك من شجر وغيره .

(٣) يغطه : يغمسه .

(٤) السواد : قرى الكوفة والبصرة بالعراق .

(٥) جمع المد ، وهو مقابل الجزر .

أتاه فضربَ جنبَه ليثنىَ إليه عنقَه ، كأنّه يريد عضّه ، فيضرب بيَساره إلى مِشفره فيجذبه جذبةً يَفصِل بها بين دأيات عنقِه[1] . وإنْ ألفاه قائماً وثبَ وثبةً فإذا هو فى ذِروه سَنامه ؛ فعند ذلك يصرِّفه كيف شاء ، ويتلعّب به كيف أحبّ .

(١) الدأيات : جمع دأية ، وهى الفقرة من الفقار .

١٤٠

أبيات لبعض الشعراء العميان

أنشدنى ابن الأعرابى لرجل من بنى قريع يرثى عينه ويذكر طبيبا :

لقد طفت شرقىَّ البلاد وغربَها ... فأعيا علىَّ الطبُّ والمتطبِّب

يقولون : إسماعيل نقّاب أعينٍ ... وما خيرُ عينٍ بعد نقب بمنقبِ

يقولون : ماء طيِّب خانَ عينَه ... وما ماء عينٍ خان عيناً بطيِّبِ

ولكنه أيامَ أنظرُ طيِّبٌ ... بعينى قُطامىٍّ علا فوق مرقب (١)

وقال الخُرَيمىّ :

كفى حَزَناً أنْ لا أزورَ أحبتى ... من القُرب إلاّ بالتكلُّف والجهدِ

وأنى إذا حُييتُ ناجيتُ قائدى ... ليعدلَنى قبل الإجابة للردِّ (٢)

إذا ما أفاضوا فى الحديث تقاصرتْ ... بِىَ النفسُ حتى ما أُحيرُ وما أبدِى (٣)

كأنّى غريبٌ بينهم لستُ منهمُ ... فإن لم يَحُولوا عَن وفاء ولا عهدِ

أقاسى خطوباً لا يقومَ بمثلها ... من الناس إلاّ كلُّ ذى مِرّةٍ جَلْدِ (٤)

---

(١) القطامى : الصقر . المرقب : المكان العالى .

(٢) يقول : لا أعرف من أين يصدر صوت التحية ، فأطلب من قائدى أن يوجهنى إلى جهة من حيانى لأرد تحيته .

(٣) ما أحير : ما أرد .

(٤) المرة : القوة . الجلد : الشديد القوى .

١٤١
قدرته على حمل الأثقال

قال : وليس شيء يحمل من عدد الأرطال ما يحمل الفيل ، لأن الذى يَفضُل فيما بين حمل الفيل وحمل البُختى [١] أكثرُ من قَدر ما يفضُل بين جسم الفيل على جسم البُختى .

وقد قال الأعرابىُّ الذى أُدخِلَ على كِسرى ليَعجَبَ من جفائه وجَهله حين قال له : أىُّ شىء أبعدُ صوتا ؟ قال : الجمل . قال : فأى شىء أطيب لحما ؟ قال : الجمل . قال كِسرى : كيف يكون الجمل أبعدُ صَوتا ونحن نسمع صوتَ الكُرْكىّ [٢] من كذا وكذا ميلا ؟ قال الأعرابىّ : ضَع الكركىّ فى مكان الجمل ، وضع الجمَل فى مكان الكركىّ حتى يُعرفَ أيُّهما أبعد صوتا .

قال : وكيف يكونُ لَحمُ الجملِ أطيبَ من لحم البط والدَّجاج والفراخ والدُّرّاج والنَّواهض [٣] والجِدَاء ؟ قال الأعرابى : يطبخ لحمُ الدَّجاج بماء وملح ، ويطبخ لحم الجمل بماء وملح حتى يُعرفَ فَضْلُ ما بين اللَّحمين . قال كسرى :

---

(١) البختى : واحد البخاتى ، وهى الإبل الخراسانية ، نسبة إلى خراسان .
(٢) الكركى : ضرب من الطير .
(٣) النواهض : فراخ الطيور ، إذا تهيأت للطيران .

فكيف تزعم أن الجمل أحملُ للثِّقل من الفيل والفيلُ يحمل كذا وكذا رطلا؟

قال الأعرابى : ليبرك الفيل ويبرك الجمل ، وليُحمَل على الفيل حمل الجمل . فإن نهضَ به فهو أحملُ للأثقال .

قال القوم : ليس فى استطاعة الجمال النهوضَ بالأحمال ما يوجب لها فضيلةً على حَمْل ماهو أثقل . ولَعمرى إن لِلجمل بِلِين أرساغه وطول عُنقه لفضيلةً فى النهوض بعد البروك . فأمَّا نفس الثقل فالذى بينهما أكثر من أن يقع بينهما الخيار .

قالوا : وبفارسَ ثيران تحمل حمل الجمل باركةثم تنهض به .

١٤٢
جسامة الفيل

قال أبو عثمان :

خرجتُ يومَ عيد ، فلمّا صِرْت بِعيسا باذ(١) إذا أنا بتَلٍّ مجلَّل بقطُوع ومُقَطَّعَات(٢) ، وإذا رجالٌ جلوسٌ عليهم أسلحتهم ، فسألتُ بعض من يشهد العيد فقلت : ما بال هَذه المَسْلَحة(٣) في هذا المكان وقد أحاطَ الناسُ بذلك التّل ؟ فقال لي : هذا الفيل . فقصدت نحوَه ومالي همٌّ إلا النَّظَرُ إلى أذنيه ، فرجعتُ بعد طُول تأمُّل وأنا أتوهَّم عامّةَ أعضائه ، بل جميع أعضائه إلاّ أذنيه ، وما كان لي في ذلك عِلّةٌ إلاّ شغْلَ قلبي بكلِّ شيء هجمتُ عليه منه ، وكلُّه كان شاغلاً لي عن أذنه التي إليها كان قَصْدي .

فذاكرتُ في ذلك سهلَ بن هارون ، فذكر لي أنّه ابتُلِيَ بمثلها ، وأنشدني في ذلك بيتين من شعره ، وهما قوله :

أتيت الفيلَ محتسِباً بقَصدِي لِأُبصِرَ أذنَه ويطُولَ فِكري
فلم أر أذْنَه ورأيتُ خَلْقاً يقرِّب بين نسياني وذِكري(٤)

---

(١) موضع كان بشرقي بغداد ، منسوب إلى عيسى بن المهدي .
(٢) مجلل : مغطى . القطوع : نوع من الثياب المزينة . والمقطعات : ثياب عليها وشي .
(٣) المسلحة : الجند في سلاحهم .
(٤) أي يذهلني .

١٤٣

أعجب الأشياء

قال : وقال رجل مرّةً : أخزى الله الفيل فما أقبَحَه ! فقال بكر بن عبد الله المُزَنّي : لا تشتمْ شيئاً جعله اللهُ آيةً في الجاهلية ، وإرهاصاً للنبوّة !

وقال سَعدانُ الأعمى النحويّ : قلت للأصمعيّ : أيُّ شيء رأيتَ أعجب؟ قال : الفيل .

وقيل لابن الجهم : أيُّ أمورالدُّنيا أعجبُ ؟ قال : الشم .

وقيل لإبراهيم النظام : أي أمورالدنيا أعجب؟ قال : الروح

وقيل لأبي شَمِر : أيُّ أمور الدُّنيا أعجب ؟ قال: النسيان والذكر.

وقيل لَسلْم الخلال : أي أمور الدنيا أعجب؟ قال : النار .

وقيل لبطليموس : أي أمور الدنيا أعجب ؟ قال بدَنُ الفلَكِ . وقال مرة أخرى : الضياء .

وقيل لأبى عمرو بن فائدٍ الأسوارىّ : أىُّ شىء مما رأيتَ أعجب؟ قال : الآجال والأرزاق .

وكان إبراهيم بن سيارٍ النظامُ شديدَ التعجب من الفيل .

وكان مَعبد بنُ عُمَر يقول : إن السرطانَ والنعامة أكثرُ عجائبَ من الفيل .

١٤٤
الدب

والدبُّ الأنثى تقيم أولادَها تحت شجرة الجوز ، ثم تصعد الشجرةَ فتجمع الجوزَ فى كفِّها ، ثمّ تضرب باليُمْنَى على اليُسرى فتحطم ذلك الجوز فترمى به إلى أولادها ، فلا تزال كذلك حتى إذا شبِعنَ نزلَتْ .

وربَّما قطعَ الدبُّ من الشجرة الغُصنَ العَبْلَ الضَّخم ، الذى لا يقطعه صاحبُ الفأس إلاَّ بالجهد الشديد ، ثم يشدُّ به (١) على الفارس ، قابضاً عليه فى موضع قبض العصا ، فلا يصيب شيئاً إلاَّ هتَكَه(٢) .

---

(١) الشد : العدو .

(٢) الهتك : الشق والقطع .

١٤٥

تكليم الأنبياء للحيوان

وقد روى الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى كلامِ السباعِ والإبل ضروباً ، ولم يذهبوا إلى أنَّها نطقت بحروفٍ مقطَّعة ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم إمّا أن يكون اللهُ أوحَى إليه بحاجاتها ؛ وإما أن تكون فراسته وحسُّه وتثبّتُه فى الأمور ، مع ما يُحضره الله من التوفيق ، بيَّنَ له معانيهَا وجلاَّها له ، واستدلّ بظاهرٍ على باطن ، وبهيئةٍ وحركةٍ على موضع الحاجة ؛ وإما أن يكون الله ألهمَه ذلك ألهاماً .

وأمّا جهةُ سليمان بن داود – صلى الله على نبيِّنا وعليه — فى المعرفة بمنطق الطير ومنطق كلّ شيء، فلا ينبغى أن يكون ذلك إلاّ أن يقومَ فى الفهم عنها مقامَ بعضِهم من بعض ، إذا كان الله قد خصَّه بهذا الاسم ، وأبانَه بهذه الدلالة . وأعلام الرسل لا يكثر عددُها ولا تعظُم أقدارُها على أقدار فضائل الأنبياء ؛ لأنّ أكثر الأنبياء فوق سليمان بن داود ، وأدنى ذلك أنّ داودَ فوقَه ، لأن الحُكْمَ فى الوارث والمورِّث، والخليفةِ والذى استخلفه ، أن يكون المورِّث أعلى ، والمستخلِفُ أرفع . كذلك ظاهرُ هذا الحكم حتى

يخص ذلك بزمان حادث . وإنما تكثر العلامات وتعظم على قدر طبائع أهل الزمان ، وعلى قدر الأسباب التي تتفق وتتهيأ لقوم دون قوم ، وهو أن يكونوا جبابرة عتاة ، أو أغبياء منقوصين ، أو علماء معاندين ، أو فلاسفة محتالين ، أو قوماً قد شملهم من العادات السيئة ، وتراكم على قلوبهم من الإلف للأمور المردية ، مع طول لبث ذلك في قلوبهم ، أو تكون نحلتهم وملتهم ودعوتهم تحتمل من الأسباب والاحتيالات أكثر مما يحتمل غيرها من ذلك ؛ فإن من الكفر ما يكون عند المسألة والجواب أكثر انتشاراً ، وأكثر انتقاضا ، ومنه ما يكون أمتن شيئاً ، وإن كان مصير الجميع إلى الانتقاض والفساد . ومنه شيء يحتاج من المعالجة إلى أكثر وأطول .

وإنما يتفاضل العلماء عند هذه الحال ، وقد يكون أن يتقدح في قلوب الناس عداوات وأضغان سببها التحاسد الذي يقع بين الجيران والمتفقين في الصناعة ، وربما كانت العداوة من قبل العصبية .

١٤٦

حقد الفيل

قال : وأخبرني رجلٌ من البَحْريِّين لم أرَ فيهم أقصَدَ ولا أسَدَّ(١) ولا أقلَّ تـكلُّفا منه ، قال :

لم أجدْهم يَشكُّون أن فيّالاً ضربَ فيلاً فأوجعه فألحّ عليه ، وأنَّهم عند ذلك نَهَوه وخوَّفوه وقالوا : لا تَنَمْ حيثُ ينالُك فإنَّه من الحيوان الذى يَحقد ويُطالب . ولما أراد ذلك السائسُ القائلةَ(٢) شدَّهُ إلى أصل شجرة، وأحكمَ وَثاقَه(٣) ، ثم تنحى عنه بمقدارِ ذراعٍ ونام ، ولذلك السائس جُمَّة(٤) .

قال : فتناولَ الفيلُ بخرطومه غصناً كان مطروحاً فوطئَ على طرفه حتى تشعَّث(٥) ثم أخذه بخرطومه فوضع ذلك الطرفَ على جُمَّة الهندىّ ، ثم لواها بخُرطومه ، فلما ظَنَّ أنَّها قد تشبَّـكتْ به وانعقدتْ ، جذبَ العودَ جَذْبةً فإذا الهندىُّ تحت قوائمه ، فخبطه خبطةً كانت نفسُه فيها ..

---

(١) من السداد ، وهو الصواب والاستقامة .

(٢) القائلة : النوم فى نصف النهار .

(٣) الوثاق : الرباط .

(٤) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٥) تشعث : تفرق .

١٤٧

الزرافة

والزرافة تسكون فى أرض النُّوبة فقط . وهى تسمّى بالفارسية « أُشْتُر كاوْ بلنك » ، كأنه قال : بعير ، بقرة ، نمر . لأنّ كاو هو البقرة ، وأشتر هو الجمل ، و بلنك هو النمر .

* * *

والزرافة خَطم الجمل ، والجلد للنمر ، والأظلاف والقرن للأُيَّل ، والذنَب للظّبى ، والأسنان للبقر .

والزرافة طويلة الرِّجلين ، منحنيةٌ إلى مآخيرها . وليس لرجليها ركبتان ، و إنما الركبتان ليديها . وكذا البهائم كلها .

ذوات القرون

١٤٨ -

والفيل من ذوات القرون . وفى الحيّات والأفاعى مالها قرونٌ ، و إنما ذلك الذى تسمع أنه قرن إنما هو شيء يقولونه على التشبيه ؛ لأنّه من جنس الجلد والغُضروف . ولو كان من جنس القرون لكانت الحية صُلبةَ الرأس .

والحيةُ أضعفُ خَلْقِ الله رأساً ، ورأسهُ هو مقتله ؛ لأنَّ كلَّ شيء له قرنٌ فرأسهُ أصلب ، وسلاحهُ أتم .

والقرنُ سلاح عَتِيدٌ[1] غير مجتلَبٍ ولا مصنوع ، وهو لذات القرون فى الرءوس .

وللكركدّنِ قرنٌ فى جبهته .

والجاموس أوثق بقَرنه من الأسد بمخلبه ونابه .

* * *

والأجناس التى تكون لها القرون تكون قرونها فى الذكور منها ،

(١) العتيد : المعد الحاضر .

وقد يكون الفحل أجمّ[١] ، كما أن اللحى عامٌّ فى الرجال ، وقد يكون فيهم الشِّناط[٢] .

وقد تتشعَّب قرونُ الظباء إذا أسنَّت .

وقرونُ الظباء و بقر الوحش شِدادٌ جدًّا ، و إنّما تعتمد الأوعال فى الوثوب وفى القذف بأنفسها من أعالى الجبال على القرون . والأغلب على القرون أن تكون اثنين اثنين . وقد يكون لبعض الغنم قرونٌ عدّة .

---

(١) الأجم : الذى لا قرن له .

(٢) السناط بكسر السين وضمها : الذى لا لحية له ، ويقال له سنوط أيضاً بفتح السين .

١٤٩
فرس الماء

قال عمرو بن سعيد : فرس الماء يأكل التمساح . قال : ويكون في النيل خيولٌ ، وفي تلك البحور — يعني تلك الخلجان — مثلُ خيول البرّ . وهي تأكل التماسيح أكلا شديداً .

قال : وفرس الماء يؤذن بطلوع النيل ، بأثرَ وطء حافرِه ، فحيث وجدَ أهل مصر تلك الأرجل عرفوا أن ماء النيل سينتهي في طلوعه إلى ذلك المكان.

وهذا الفرس ربمّا رعَى الزروع . وليس يبدأ إذا رعَى في أدنَى الزرع إليه ، ولكنّه يَحْزِرُ منه قدر ما يأكل[١] ، فيبدأ بأكله من أقصاه فيرعى مُقْبلاً إلى النيل. وربمّا شربَ هذا الفرس من الماء بَعْدَ المرعى ثمّ قاده في المكان الذي رعى فيه ، فينبُت أيضاً .

والطير عندنا يأكل التوت ويذرِقه ، فيَنبت من ذرقه شجر التوت .

قالوا : وإذا أصابوا من هذه الخيل فِلْواً صغيراً[٢] ربّوه مع نسائهم وصبيانهم في البيوت .

قال : وفي سنٍّ من أسنانه شفاء من وجع المعدة .

---

(١) الحزر : تقدير الشيء بالحدس والظن .
(٢) الفلو : الجحش والمهر إذا افتلى وفطم .

١٥٠

نوادر من الشعر والخبر

قالت امرأةٌ ترثي عُمَير بن معبد بن زرارة :

أعينُ ألاَ فابكي عمير بن معبد وكان ضَروباً باليدين وباليد

تقول : بالسيف وبالقداح[1] ، لأن القداح تُضرب باليدين جميعاً .

* * *

وكان حسّان يقول لقائده إذا شهد طعاماً : أطعامُ يدٍ أم طعام يدين ؟

طعام يدين : الشّواء وما أشبه ذلك . وطعام اليد : الثرائد وما أشبهها .

* * *

وقال بعض السلاطين لغلام من غلمانه وبين يديه أسير : اضرب !

قال : بيدٍ أو يدين ؟ قال : بيد . فضربه بالسياط . قال : اذهب فأنت حرٌّ . وزوّجه وأعطاه مالا .

(١) القداح : جمع قدح بالكسر ، وهي سهام الميسر .

وكان أهل المِربد[١] يقولون : لا نرى الإنصاف إلاّ في حانوت فرج الحجّام . لأنه كان لا يلتفت إلى من أعطاه الكثير دون مَن أعطاه القليل ، ويقدِّم الأوّل ثم الثاني ثم الثالث أبداً حتّى يأتيَ على آخرهم . على ذلك يأتيه من يأتيه ، فكان المؤخَّر لا يغضب ولا يشكو .

* * *

وقال ابن مقرومٍ الضَّبيّ :

وإذا تُعُلِّل بالسِّياط جيادُنا ... أعطاك ثائبة ولم يتعلَّلِ[٢]
فدعَوا نَزالِ فكنتُ أوّلَ نازلٍ ... وعلامَ أركبه إذا لم أنزلِ
ولقد أفدتُ المالَ من جمع امرئٍ ... وظلفتُ نفسي عن لئيم المآكل[٣]
ودخلتُ أبنية الملوك عليهمُ ... ولَشرُّ قول المرء ما لم يفعلِ
وشهدت معركة الفيول وحولها ... أبناء فارسَ بيضُها كالأعْبَل[٤]
متسربلي حَلَق الحديدِ كأنَّهم ... جُربٌ مُقارفةٌ عَنِيّةَ مُهمِلِ[٥]

(١) المربد: موضع بالبصرة .
(٢) الثائبة : الدفعة الراجعة من الجرى . ثاب : رجع .
(٣) ظلفت : منعت وكففت .
(٤) البيض : جمع بيضة الحديد التي تلبس فوق الرأس . والأعبل والعبلاء : حجارة بيض .
(٥) العنية : هناء الإبل الذي تهنأ به ، أي تطلى . مقارفة : مخالطة . المهمل: الذي يهمل الإبل في الرعي ؛ يخلي بينها وبين نفسها .

وهذا النص آخر ما كتب الجاحظ في كتاب الحيوان . والحمد لله الذي هدانا لهذا بفضله وعونه ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

دليل كتاب الحيوان (*)

التهذيب	الحيوان	التهذيب	الحيوان	التهذيب	الحيوان
١	١ : ١	٢٧	١٢٨	٥٣	٢٥٦
٢	٣٧	٢٨	١٢٩	٥٤	٢٦٠
٣	٣٨	٢٩	١٤٧	٥٥	٢٨٤
٤	٤٢	٣٠	١٥٤	٥٦	٣١١
٥	٥٠	٣١	١٥٥	٥٧	٣١٩
٦	٦٠	٣٢	١٧٠	٥٨	٣٤٣
٧	٧٦	٣٣	١٧١	٥٩	٣٤٩
٨	٧٩	٣٤	١٧٢	٦٠	٣٩٩
٩	٨٧	٣٥	١٧٩	٦١	٤٠٤
١٠	٨٨	٣٦	١٩٥	٦٢	٤٠٥
١١	١٠٦	٣٧	٢٣١	٩٣	٤٥١
١٢	١١٢	٣٨	٢٣٨	٦٤	٤٥٧
١٣	١٣٥	٣٩	٢٦٠	٦٥	٥١٠
١٤	١٤١	٤٠	٢٧٦	٦٦	٥٢٧
١٥	١٩٧	٤١	٢٨٩	٦٧	٥٣٠
١٦	٢٠٤	٤٢	٣٠٧	٦٨	٤ : ٥
١٧	٢٨٠	٤٣	٣٧٤	٦٩	٧
١٨	٢٨٩	٤٤	٣ : ٥	٧٠	٤٢
١٩	٢ : ١٤	٤٥	٥٤	٧١	٤٩
٢٠	٥٠	٤٦	١٢٣	٧٢	٦٥
٢١	٧٣	٤٧	١٢٨	٧٣	٧١
٢٢	٨٣	٤٨	١٣١	٧٤	١٠٧
٢٣	٨٧	٤٩	١٣٩	٧٥	١١١
٢٤	١١٣	٥٠	١٤٢	٧٦	١١٦
٢٥	١٢٢	٥١	١٤٩	٧٧	١١٨
٢٦	١٢٤	٥٢	٢٢٧	٧٨	١٢٠

(*) وعدت في مقدمة التهذيب أن أنص على ما يقابل مواضع التهذيب من مواضع كتاب الحيوان. وقد جعلت أرقام فصول التهذيب هنا مقابلة بأرقام أجزاء الحيوان وصفحاته .

التهذيب	الحيوان	التهذيب	الحيوان	التهذيب	الحيوان
٧٩	١٢٨	١٠٣	٢٣٨	١٢٧	١٩٦
٨٠	١٣٠	١٠٤	٢٤٥	١٢٨	٢٠٠
٨١	١٥٤	١٠٥	٢٤٨	١٢٩	٢٤٨
٨٢	١٥٦	١٠٦	٢٥٢	١٣٠	٣١٣
٨٣	١٧٧	١٠٧	٢٧٣	١٣١	٣٥٦
٨٤	١٨٤	١٠٨	٣٠٠	١٣٢	٣٦٣
٨٥	١٩١	١٠٩	٣١١	١٣٣	٤١١
٨٦	١٩٣	١١٠	٣١٧	١٣٤	٤٦٦
٨٧	٢٤٧	١١١	٣٣٩	١٣٥	٤٦٧
٨٨	٢٥١	١١٢	٣٥٤	١٣٦	**٧** : ١٢
٨٩	٣١٠	١١٣	٤٠٩	١٣٧	١١٨
٩٠	٤٦١	١١٤	٤١٧	١٣٨	١٢٣
٩١	٤٦٦	١١٥	٤٢٩	١٣٩	١٣١
٩٢	٤٧٨	١١٦	٤٤٦	١٤٠	١٥١
٩٣	**٥** : ٢٣	١١٧	٥٢٥	١٤١	١٩٤
٩٤	٢٥	١١٨	٥٣٩	١٤٢	٢٠١
٩٥	٦٠	١١٩	٥٧٠	١٤٣	٢٠٢
٩٦	٦٦	١٢٠	٥٧٣	١٤٤	٢١٧
٩٧	١١٨	١٢١	**٦** : ٢٣	١٤٥	٢١٨
٩٨	١٣٧	١٢٢	٣٩	١٤٦	٢٢٨
٩٩	١٥١	١٢٣	٥٤	١٤٧	٢٤١
١٠٠	١٨١	١٢٤	٦٧	١٤٨	٢٤٦
١٠١	٢١٠	١٢٥	١٤٥	١٤٩	٢٥٠
١٠٢	٢٢٤	١٢٦	١٨٦	١٥٠	٢٦٠

الفهارس الفنية

١ — فهرس الحيوان

٢ – فهرس الأعلام

٣ — فهرس القبائل والطوائف

٤ — فهرس البلدان والمواضع

٥ - فهرس الأمثال

٦ — فهرس الأشعار

٧ — فهرس الفصول

استدراك

ص	س	
٥٠	٥	والخلوف — صوابه : الخلوف .
٦٥		الحاشية (٢) ، (٣) هى لصفحة ٦٦ .
١٠٨		تحذف الحاشية الأولى وتغير الأرقام بعدها .
١٢٦		الحاشية خاصة بصفحة ١٢٧ .

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر الدسوقى

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

جامعة القـــاهرة

صدر منها :

١ — قصة الملكية فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور حسن سعفان .

٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمى هلال .

٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .

٤ — كونفشيوس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان .

٥ — الفكاهة فى الأدب العربى (جزآن) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .

٦ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

٧ — تاريخ الفكر الاقتصادى : من سلسلة الاقتصاد السياسى
تأليف الدكتور لبيب شقير .

٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب .

٩ — ابن خلدون ، منشىء علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طبانة .

١١ — الحريات العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة : تأليف الدكتور طعيمة الجرف .

١٢ — أبو حيان التوحيدى : (جزآن). من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى.

١٣ — هوميروس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور محمد صقر خفاجة .

١٤ — حقوق الإنسان فى الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

١٥ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الأول) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .

١٦ — بوذا : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .

١٧ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان .

١٨ — أبو حنيفة والقيم الإنسانية فى مذهبه : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .

١٩ — مع الصحفى المكافح « أحمد حلمى » : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور أحمد أحمد بدوى .

٢٠ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الثانى) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

الكتاب التالي من هذه السلسلة :

(من قضايا اللغة والنحو)

بقلم

الأستاذ على النجدى ناصف

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة الرسالة
شارع حمودة المناول ٣ عابدين